أقفال العشق

رواية

محمد عزب

obeikandl.com

9

محمد عزب

أقفال العشق

رقم الايداع / 5727 / 2014ط1

الترقيم الدولى / ٩ - ٦٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / سارة سليمان

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيزق

أ/ محمود السيد

المراسلات : 60 ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

obeikandl.com

صورة الغلاف مهداة للمؤلف من المصورة الفوتوغرافية الكندية

. Gail Aguiar

http://gailatlarge.com/blog/2013/01/13/19142

obeikandl.com

obeikandl.com

∞

العناق...بوح ونوح، لمة لأرواح مبعثرة، احتضان واحتواء. لمسات حائرة، همسات خادشة، إيحاءات معبرة، أنفاس ساخنة، لعاب مختلط، ارتياد واكتشاف، صعود وهبوط، انصهار وذوبان، فناء في الآخر.

العشق يحرك الكون، والعناق هو وقود الحب، لا عتق من العشق، ولا انفكاك من العناق، حين تعانق تتخلى عن كونك واحد إلى نصف يُكمل نصفًا آخر تخلى عن كونه واحد.

يقول ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوقة
إليها، وهل بعد العناق تدان؟

وألثم فاها كي تزول حرارتي
فيشتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من الجوى

ليشفيه ما قد تلثم الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن يرى الروحين يمتزجان.

من منهما توغل في الآخر؟ من منهما تورط في الآخر؟ من منهما شف الآخر؟ من منهما سكن الآخر؟ من منهما حل في الآخر؟ من منهما تقمص الآخر؟ من منهما انطبق على الآخر؟ من منهما أبحر في الآخر؟

الحياة برمتها مبنية على فكرة العناق: تتعانق الشمس والقمر في الكسوف والخسوف، تتعانق جزيئات المواد فتتماسك، تتعانق المشربيات بين عاشق ومعشوق، تتعانق الخيوط لتصنع الثياب، تتعانق الحروف لتُكَون الكلمات، تتعانق الصفائح الدموية لتُوقف نزف الدماء، تتعانق السحب وتتلاشى ليولد المطر، تتعانق عقارب الساعة لتنعي انصرام أيامنا.

عناق في اللقاء وفي الوداع، العناق هو الحياة، حتى في لحظات الانكسار يُقدم العناق بلسما للجراح، من منا لم يرنُ يوما إلى حضن طويل حتى لو عصر أضلاعه وسحقها؟

الموت يفشل أحيانًا في أن يفكَّ الأذرع المتشابكة والأحضان المتشبثة، الضم والعناق هما آخر ما يمكن أن تفعله في لحظات الفراق. كُتب العشق على بني آدم فلا يعتقهم منه إلا الموت، بل إن الموت يفشل أحيانا في القضاء على سيرة الحب.

openkandil.com

في الثامن والعشرين من يونيو لعام ٢٠١٣ لقي رجل صيني وزوجته من بلدة «ووهان»[١] حتفهما إثر سقوطهما من النافذة التي انهمكا في ممارسة الجنس بجوارها، قال شاهد عيان أنهما كانا يتعانقان أثناء سقوطهما بطبيعة الحال لأن كلاهما كان في الآخر. علق أحد المارة: «كلاهما اتحد في الآخر». أضاف ثالث: «على الأقل ماتا وهما يفعلان شيئا يحبانه».

في الخامس والعشرين من شهر أبريل من نفس العام انهار مصنع ملابس بالقرب من مدينة «داكا»[٢] البنجلادشية. وُجد وسط الحطام رجل يحتضن امرأة في الموت أو حتى الموت. بالرغم من هول المنظر وفظاعته كان مشهدهما مؤثرا وسط الحوائط المتهدمة والأشلاء المتناثرة.

في سبتمبر ٢٠١٢ ببلدة «بيدفورد»[٣] الإنجليزية قررت السيدة «ريدز»[٤] التي تعاني من سرطان الأمعاء الانتحار، صمَّم زوجها أن يصطحبها في رحلتها بعد أن أمضيا خمسين سنة معا. نقلا فراشهما بالقرب من الشرفة حتى يتمكنا من رؤية نهر «توريدج»[٥]. تناولا الجرعة السامَّة وتمددا بجوار بعضهما وكلاهما يمسك بيد الآخر.

في الخامس عشر من أبريل لعام ١٩١٢ غرقت السفينة «تيتانك»، شُوهد بالقرب من قارب النجاة رقم (٨) السيد «إزيدور» وزوجته «إيدا».[٦] سُمِحَ لهما بركوب القارب، لكن الزوج رفض لأنه كان هناك أطفال ونساء على السفينة، قررت «إيدا» المكوث مع زوجها قائلة:

«لقد عشنا معًا لسنوات طويلة. حيث تذهب أذهب معك». أهدت معطفها الفرو لخادمتها حبًّا وتقديرًا لها فلم تعد بحاجة إليه.(من الجميل أن تجد أناسًا يفكرون في الحياة وهم على أعتاب الموت). تعانقا حتى امتطت موجة عاتية السفينة فأخذتهما معا. ربما ابتلعهما حوت أو مزقت جسميهما أسماك «البراكودا»، لكن حبهما بقي. نُقش على المقبرة الافتراضية للزوجين بنيويورك:

Many waters cannot quench love,

Neither can the floods drown it.

لا يمكن لمياه المحيطات أن تُخمد جذوة الحب،

ولا للطوفان أن يغرقه.

عام ٧٢٤ ميلادية كان الخليفة الأموي «يزيد بن عبد الملك» يلهو مع جاريته الأثيرة «حبابة» فشرقت بحبة رمان وقضت من فورها، جنَّ جنون يزيد فأخذ يقبلها ويشمها ويرشفها ويفعل بها ما يريد رافضًا أن يأخذوها منه حتى جيفت، استخلصوها من بين يديه ودفنوها، فأمر أن يُنبش قبرها، بقي على هذه الحال حتى هلك بعد أربعين يومًا. ربما كانت تلك واحدة من أغرب قصص «النيكروفيليا»[٧] في التاريخ.

في أوائل فبراير لعام ٢٠٠٧ وقبل عيد الحب بأيام اكتشف الأثريون هيكلين عظميين لرجل وامرأة في العشرينيات في عناق أبدي يعود إلى

ما يقرب من ستة آلاف سنة، أطول عناق في التاريخ بحق، كان هذا في مدينة «مانتوفا»،[٨] نفس المدينة التي اختارها «شكسبير» لنهاية قصته الخالدة «روميو وجوليت». أُطلِق على الهيكلين «عاشقي فالدارو».[٩] قررت بلدية «مانتوفا» نقل الهيكلين إلى بيت صغير من الزجاج في أحد المتاحف يوفر لهما نوعًا من الخصوصية، ربما لم يتمكنا من الحياة معًا في الدنيا فلا أقل من أن يعيشا معًا في الموت.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

لم يتوقف سقوط نُدَف الثلج لأسبوع كامل أو يزيد حتى ابْيَضّ كل شيء: السيارات وأعمدة الإنارة وأسقف البيوت والمداخن وإسفلت الشوارع ومعاطف المارة وقبعاتهم. بدت هذه النُّدفُ كفراشات متوهجة في خلفية الأعمدة الكهربية التي تُترك مضاءة ليل نهار في هذه الشهور من السنة. بالرغم من غياب الشمس بالكلية في تلك الأصقاع، إلا أن بلورة الجليد الذي كسا شارع «سومرست»[١٠] وقناة «ريدو»[١١] راحتا تشعان نورًا فطريًّا خافتًا يُعيد إلى الأذهان صورة الكون البكر في مستهل الخليقة قبل أن تدنسه الخطيئة ويلوثه البشر.

صوب جسر المشاة المعروف بـ «كوركتاون»[١٢] والذي يقع على مقربة من جامعة «أوتاوا»[١٣] سار رجل وامرأة ملتصقين. تراصَّت على امتداد الطريق الأشجار العارية التي التفَّت أفنانها حول بعضها البعض في عناق عجيب. بدا الزوجان أو العاشقان غير عابئين بالثلوج الهشة التي راحت تهوي متراقصة حولهما، تحولت أنفاسهما الساخنة في الهواء البارد إلى أبخرة تلاشت في الحال. لم يبد منهما الكثير فقد ارتديا قفازات وأحذية برقبة طويلة.

قبض الرجل بيمناه على مظلة داكنة اللون تناسب ملابس الشتاء، ووضع يسراه حول خصر المرأة التي راحت تغني بصوت عذب جميل تارة لـ «سانتا كلوز» أو «بابا نويل» الذي يسكن «جرينلاند» أو ربما «فنلندا» حيث يقوم بتصنيع اللعب طيلة شهور السنة ثم ينطلق بها في أوان «الكريسماس» ليمنحها للأطفال، وتارة أخرى لرجل الثلج Le bonhomme de neige الذي زارها وهي بعد طفلة في بلدتها البعيدة، لكن البيت كان دافئًا فذاب جسمه، ولم يبق منه سوى كوفيته وغليونه.[١٤]

صعد الرفيقان درج الجسر بصعوبة لافتة تشي بأنهما متقدمان في السن، أو ربما بسبب الثلوج الغادرة التي استقرت على الممشى المعدني. تقدما منحرفين نحو الجانب الأيمن من الجسر وهما يفحصان أقفال الحب والغرام Cadenas d' amour التي وضعها العشاق على السياج الحديدي، لفَّ بعض المحبين أقفالهم في أكياس من البلاستيك الشفاف لأن الهواء والأمطار يجلبان لها الصدأ.

على أحد الأقفال الحديثة التي تعمل بالأرقام نُقش قلب وبداخله حرفي M متشابكين وكأن كلاهما يقول للآخر «أنا أنت وأنت لي، كلانا يُكمل الآخر، كلانا يستند على الآخر، كلانا تعتمد حياته على الآخر». قفل آخر كبير مصنوع باليد على الأرجح نُحت عليه Ensemble, nous sommes fort أي «معًا نحن أقوى». حُفِر على قفل ثالث هذه الكلمات

البسيطة Je suis rein sans toi «أنا لا شيء بدونك»، بالإضافة إلى مئات التواريخ بدءًا من ٢٠٠٦، وهو عام إنشاء الجسر. أرقام وحروف لا تعني الكثير إلا لأصحابها.

ما أجمل العشق! ما ألذه حين يجمع شمل المحبين! ما أنبل الحزن! ما أقساه حين يُكتب الفراق عليهم وهم له كارهون! تقول الإحصاءات إن حوالي نصف العلاقات والارتباطات وحالات الزواج في العالم تنتهي بالفشل. يا له من أمر مؤسف!

تُرى أين ذهب أصحاب هذه الأقفال؟! هل مازالوا على قيد الحياة؟! وإذا كانوا كذلك فهل يظلُّهم سقف واحد؟! هل يأتون هنا لتفقد أقفالهم، أم يحضرون فرادى ليسكبوا دموع الفقد وينشجوا لوعة البعد؟ أصعب ما في الحب أن تفقده.

يُقال إن أقفال العشق ظهرت أول ما ظهرت فوق قمة جبل «هوانج شان»[١٥] في الصين تخليدًا لذكرى شاب وفتاة قفزا معا من هذا الارتفاع الشاهق بعد أن حِيل بين زواجهما. إذا صحَّت هذه الحكاية فإن الصين قد قدمت للعالم ما هو أهم من كل المنتجات والسلع التي تُصدرها. من اللافت أيضًا أن جلَّ الأقفال الموضوعة على جسور العشق في العالم صُنعت في الصين. تجدها على جسور «إردبيرجر»[١٦] بفيينا و«الفنون» بباريس و«هابني»[١٧] بدبلن و«تومسكي»[١٨] بوارسو و«الألفية» بلندن

و»بروكلين» بنيويورك و»هوهنزوليرن»[١٩] بكولونيا و»بونتي ميلفيو»[٢٠] في روما حيث أنهى الروائي الإيطالي «فيديريكو موتشي»[٢١] قصته «أريدك»[٢٢] بالبطل والبطلة يعلقان قفلا لحبهما.

يميل الأوروبيون إلى الاعتقاد بأن أقفال الحب ظهرت في «صربيا» وتحديدًا في مقاطعة «راشكا»؛[٢٣] اعتادت معلمة بمدرسة ثانوية تُدعى «نادا»[٢٤] مقابلة حبيبها «ريلجا»[٢٥] على أحد الجسور هناك، اندلعت الحرب العالمية الأولى وذهب «ريلجا» ليحارب في اليونان فوقع في غرام امرأة من الأرض التي خرجت من رحمها «أفروديت» و»فينوس» و»هيلين»، قرر ألا يعود، لم تتعاف «نادا» مطلقا من صدمتها، حزنت الطالبات لحال مدرستهن، قررن كتابة حروفهن وحروف فتيانهن على أقفال وضعنها على نفس الجسر الذي شهد لقاءات «نادا» و»ريلجا»، ثم قمن برمي المفاتيح في القناة وكلهن أمل أن لا يحدث لهنَّ مثل ما حدث لمعلمتهن.

يُمثل القفل الحب فعندما نحب بإخلاص نُغلق على من نحب أهدابنا وأذرعنا وقلوبنا، ثم نُطوح بالمفتاح ليبقى العناق سرمديا. أقفال ومفاتيح وقلوب وحروف، هذا كل ما تبقى من قصص الحب، حروف كثيرة تمثل أبجدية العشق الأبدي.

لسان حال هذه الحروف يقول: « لا تتركني، قل إنك لي للأبد. قبلني

وأنا نائمة، حين تستيقظ في الصباح عانقني، بعد تناول قهوتك دعني أرشف بقاياها من على شفتيك، قبل أن تغادر المنزل عانقني من جديد، اتصل بي لتسألني عن أحوالي، وعن طعام غذائنا، لا تغلق الهاتف دون أن تقول لي كم تحبني، تلهف لرؤيتي. اشتر لي ورودًا، عد سريعًا إلى البيت؛ عشك الدافئ في انتظارك. شاهدني كل يوم امرأة جديدة، تفاجأ حين أفتح لك الباب بملابس قصيرة، تكلم معي. اطر طعامي وعطري، أطعمني بيدك، ساعدني في ترتيب البيت، شاهد معي المسلسل الذي أحبه، اسألني عن أيام حيضي، ومتى ستنتهي؟ اكتشف كهوفي. عاملني كأميرة، افتح لي باب السيارة، قل لي كم أبدو جميلة، قل لي إنني كلُّ ما تبقى من الإناث في الكون، قل لي إنني الوريثة الوحيدة لبنات حواء، قل لي إنني أمك وأختك ورفيقتك وعشيقتك، قل لي إنك تكتفي بي ولا تكتفي مني. أخبرني أنك سعيد معي، وأنني هديتك من السماء، حافظ على أسراري، احترم خصوصياتي ودموعي وخلوتي ونقاط ضعفي. تجاوز عن حماقاتي وجنوني، احتوِ أيامي وأحلامي، دغدغ مشاعري. اصطحبني للسينما، ابتَع لي الشيكولاته التي أحبها. قل لي إننا سنلف العالم معًا. احجز غرفة في فندق ساحلي لنقضي فيه عيد زواجنا، ابتع لي قرطا متدليًا، كن كريمًا معي، قصَّ أظافري وشذبها بالمبرد، ساعدني في ترقيق حاجبي وإزالة الشعر الزائد عن جسمي، اختر قميص نومي الليلة وكل ليلة، راقصني، داعب رقبتي وأصابع قدمي وشحمة أذني، أسمعني أجمل كلمات الغزل، هل يروق لك تصفيف شعري الكستنائي؟

امتدح خصري وملمسي وبشرتي وعيني وساقي وقدمي، قل لي إنك تحب هذا النمش في خدي وهذه الوحمة في حري، قل لي إنني متجددة كل يوم. دللني، هدهدني، زلزل كياني. غَر عليّ، خذني في حضنك، أجلسني على حجرك، اجرِ ورائي في البيت متوعدًا، اصفعني على مؤخرتي، ابحث عني حين أغيب عن وجهك، سر في أثري، افتخر بي، قدمني إلى أصدقائك، قل لهم إنني لوحتك وقصيدتك، وأني ملهمتك ومحبوبتك. عدني ألا يطول خصامنا، تقبل عيوبي، اقبلني في حياتك كما أنا، غازلني أمام أهلي وأهلك، أرسل لي خطابات حب، اختر لي ألواني، شاهد معي صور عرسنا، ذكرني بما دار بيننا تلك الليلة، قل لي إنني لم أتغير، قل لي إن وزني لم يزد، وأن صدري مازال مرتفعًا، وأني رطبة ومغرية. قل لي إن قدّي ممشوق وبطني مشدودة. قل لي إنني لا أكبر، وأن جمالي يزيد بمرور الأيام. تطيَّب من أجلي وخفف شاربك واستحم معي، قل لي نكتة قبيحة، اطلب مني أن أغير ملابسي أمامك، تأملني وكأنك تراني لأول مرة، بعد أن تقضي وترك مني عانقني، والآن نم قرير العين يا حبيبي، لكن لا تَنْسَ أن تقبلني قبلة المساء، وأن تضع فخذك بين فخذي ورأسي على صدرك».

لسان حال هذه الحروف يقول: «أنا رجلك وأبوك وأخوك وصاحبك، أنا أميرك وفارسك، أنا ظهرك وسندك وملجأك ومخبأك، أنا ملاكك الحارس ومستودع أسرارك، قولي إنني كلُّ هؤلاء، قولي إنني الرجل الوحيد في عالمك، إنني ماؤُك وإكسير حياتك، إنني دنيتك وجنتك. أخبريني أنني حبيبك

وعشيقك، أخبريني أنك مغرمة بالجلوس والتحدث معي، انتظري عودتي، افهميني من نظرة واحدة، قولي لي كم أنا رومانسي وعاطفي، امتدحي خلقي ولباقتي وثقافتي وأناقتي وبساطتي. أخبريني أن أفكاري تبهرك، أخبريني أنني مكافأتك، أخبريني كم أنا غيور وشهم، لا تغضبي من سكوتي وصمتي فوقتها أكون أفكر فيك، لا تغضبي حين أنظر إلى امرأة عابرة فإنما أفعل ذلك أحيانًا لأعرف قيمة ما لدي. لا تتزعجي حين أجفل عن معاشرتك فإنما أؤجج الشهوة لأستمتع بك. اعذريني حين أغلق جفني حين أحملق فيك فنور وجهك يرهق عيني. شاركيني اهتماماتي وأحلامي وآمالي وطموحاتي، تجاوزي عن هناتي. أنت تعرفين أني لست بخيلا ولا أحب النكد. قفي معي وقت نجاحي وانكساري، مشطي شعري. احلقي لي ذقني. اعقدي رابطة عنقي. أخبريني بما يجيش في صدرك، شاركيني فطوري وقهوتي وسيجارتي. اشتري لي الأشياء التي أحبها، ذكريني بالأغنيات التي أعشقها، اختاري لي ملابسي، أخبريني كم أنا ممتع في الفراش، أخبريني أنك سعيدة معي، وأنه لو عاد الزمن للوراء لاخترت العيش بجواري، أخبريني كيف كنت رقيقًا معك يوم زفافنا، كيف بددت هواجسك ومخاوفك، كيف أشعرتك بأنوثتك، كوني لي يا حبيبتي، لي وحدي».

ماذا يمكن لهذه الحروف أن تضيف؟! ربما يمكننا ببعض التخيل تصور حياة هؤلاء العشاق، خذ مثلا هذين الحرفين هناك قرب نهاية الجسر H&M embrasse-moi «عانقني»، يا له من مطلب جميل! أشهى ما في

الحب العناق؛ جُبل الناس على العناق، العناق فطري وغريزي فالأطفال يتعانقون دون سابق معرفة، حين نتعانق تبعث أجسامنا برسائل حرارية لا تفهمها إلا الأجساد المولعة بالغرام، حين نتعانق تُرسل أرواحنا إشارات خفية لا يفكُّ شفرتها سوى القلوب المُضمخة بالعشق.

خلق الله حواء من ضلع آدم؛ لذا تشتاق إليه، وأما آدم فيحن لهذا الضلع الذي أُخذ منه. حين وجد آدم حواء بعد عناء عانقها ثم ضاجعها. قالت له: ما اسم هذا الشيء الذي قمنا به؟ قال: اسمه «الحب». قالت: «أكثر منه فإنه طيب».

وهذان الحرفان هناك SB ensemble pour toujours «معًا للأبد» ربما يخصَّان «سام» و«بلانش»، لابد وأنهما كانا متحابين للغاية. يبدو هذا جليًّا من الطريقة التي حُفر بها اسماهما يدويًّا على القفل. قابل «سام» «بلانش» في رحلة لشلالات نياجرا، رغم صوت المياه الهادرة شعر بقلبه يدق كأجراس كنائس «الفاتيكان». تَحَيَّن الفرصة للحديث معها. كان أمامه أقل من يوم ليعود إلى «كاليفورنيا». قرر أن يأخذ زمام المبادرة. قصة حب جميلة انتهت بأن ترك «سام» مسقط رأسه وقَدِم إلى مدينة «فانكوفر»[٢٦] ليحيا مع «بلانش»، حب حياته، حتى آخر العمر.

انظر إلى هذين الحرفين AA، «أدريان» و... و... و«أنطوان». يوجد خاتم في قفلهما؛ لابد وأنه «خاتم وعد» Anneau de promesse

وحسب. كلا... كلا... انتظر... إنهما زوجان. تؤكد ذلك الكلمات التي على القفل، إنه يخاطبها بـ «زوجتي». لم تخلع «أدريان» الخاتم منذ أن وضعه «أنطوان» في إصبعها. حين تزوجا دحرج الخاتم من يدها اليمنى إلى اليسرى. ماتت «أدريان» بمرض تسمُّم الدم تاركة طفلا لـ «أنطوان» وكثيرًا من الأسى. يزور الأخير قبرها بانتظام، اعتاد كتابة الخطابات ثم دسَّها في ثنايا القبر. كان مما كتب لها: «اليوم حصل ابننا توم على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، يريد أن يلتحق بالجيش، هل قلت لك إنه يواعد شانتال، بنت جيراننا آل جوليم؟ هل تذكرينها؟ شبَّت جميلة جدًّا. عندما أخبرني توم بحبه لها دق قلبي وعانقته، لقد صار ابننا عاشقا. يا له من شعور جميل! ليتك كنت معنا يومها، لكني لا أشك لحظة أنك تأتين لزيارتنا. أفتقدك كثيرًا يا أدريان».

كم هو محزن ويستحق الرثاء حقًّا أن ملايين العشاق عاشوا وماتوا دون أن يُخلدوا حبهم! لا شك أن في قصصهم ما هو أرق وأروع من قصص العشق المعروفة، والتي لا يتجاوز عددها أصابع اليدين والقدمين مجتمعين. كم «قيس وليلى» و«أنطونيو وكليوباترا» وغيرهم رحلوا في صمت دون أن ينبسوا ببنت شفة عن حكاياتهم؟

من المفجع أن هذه القصص ماتت مع أصحابها، حتى هذه الحروف المنحوتة على الأقفال التي تزخر بها جسور العشق لا تشي بالكثير عنهم.

تتحول مع مرور الوقت إلى قبور مجهولة لا تتحدث عن ساكنيها. بضعة حروف لا تكفي لتحكي لنا قصصهم كاملة.

أخرج الرجل من جيب معطفه قفلا عجيبًا. قالت له رفيقته:

- ما هذا القفل الأثري!
- هل أعجبك؟
- أجل.
- إنه قفل «الفايكنج».
- ماذا؟! تعني أن هذا القفل يعود لغزاة الشمال؟!
- لا، بالطبع قصدت طرازه فقط.
- آه... وإلا عُدَّ قفلا أثريًّا.
- له قصة معي.
- هل لديك قصة بعد كل هذا العمر لم تسردها على مسامعي؟!
- ربما هذه القصة وحسب. سأحكيها لك اليوم.
- لا بأس. ولماذا لم تشتر قفلا نحاسيًّا على شاكلة غالبية هذه الأقفال؟
- سمعت أن لصوص النحاس يسرقون أحلام العاشقين.
- ماذا تقول؟!
- أقول ما سمعت، بعض اللصوص يسرقون الأقفال النحاسية؛

obeikandl.com

النحاس أضحى لدى البعض أهم من المشاعر.

- أوغاد.
- هل تعتقدين أن كل الناس يقدرون المشاعر؟!
- أنت على حق.

تمنى الرجل لو استطاع أن يبتاع قفلا من مجموعة أقفال الإمبراطورة الروسية «كاترين الثانية». تمنى لو صنع قفلا بيده كما كان يفعل ملك فرنسا، «لويس السادس عشر». على أية حال قفله أثمن وأغلى لأن مفتاحه ومزلاجه يغلقان قلبًا من ذهب؛ قلب حبيبته.

أغمض عينيه وهو يقبل حبيبته فالأشياء الجميلة لا نراها بالعين، بل نحسها بالقلب، قبل خصلة الشعر الرمادية المتدلية من قبعتها، فتح القفل وناولها إياه. أخذته منه في رقة وكأنها تقبل خاتم الزواج، همَّا بوضعه معًا في السياج، لكن القائم المعدني كان أكبر من فتحة القفل.

نظر كلاهما للآخر وعلى وجهيهما نظرة من الإحباط وخيبة الأمل. قالت المرأة:

- والآن ماذا يُجدي قفل «الفايكنج» هذا؟!
- كان ينبغي عليّ أن أتحسب لهذا الأمر فأحضر سلسلة حديدية صغيرة.
- قُضي الأمر؛ دعنا نفكر في وسيلة لحل هذه المعضلة.

obeikandl.com

التفت الرجل حوله فشاهد عناقيد متدلية من الأقفال. ما يحدث هو أن أصحاب الأقفال الصغيرة يتطفلون على الأقفال الكبيرة، أشار إلى العنقود قائلا:

- هذا هو الحل.
- ماذا؟! تريدنا أن نفعل مثل «متطفلات الأعشاش»؟!
- تطفل جبري. ثم لم لا تُسمينه «تعايش» أو «تكيف» بدلا من هذه العبارة القاسية؟
- لا بأس.
- ليس في العشق تطفل؛ الحب يتسع للجميع.

أحد هذه العناقيد ضمَّ ثلاثة أقفال. يبدو أنها كلها تنتمي لشخصين بعينهما. كُتب على الأول بطامس «كوريكتور» Fille solitaire»فتاة وحيدة». حمل الثاني هذه الكلمات: Appelez-moi «اتصلي بي» مع رقم الهاتف، اجتمع شمل الفتى والفتاة في القفل الثالث الذي يقول النقش عليه Merci Corktwon, nous sommes maries «شكرًا كوركتاون، لقد أصبحنا زوجًا وزوجة».

حقًّا، لا بأس. قفل صغير ربما يحمل قصة حب أكبر. ابتسم الحبيبان وزالت ملامح التهجم عن محياهما وهما يثبتان قفلهما في هذا العنقود، أكسبه القفل الجديد بعض الثبات والاتزان. لا يخلو المتطفل من ميزة.

obeikandl.com

أخرج الرجل جوَّاله والتقط عدة لقطات للقفل بزوايا مختلفة، ثم صور رفيقته بجواره.

كان على القفل سهم «كيوبيد» يخترق قلبًا ضمَّ حرفيهما، تعانقا وهما يتبادلان قبلات أذابت الثلوج من تحتهما، قفلهما الأقوى كان هذا العناق الذي يقول فيه الشاعر: «لو مر سيف بيننا، لم نكن نعلم / هل أجرى دمي أم دمك؟»[٢٧]

ودع العاشقان قفلهما واستودعاه الزمن، نظرت المرأة إلى قفل كُتب عليه بحبر دائم «مغلق للأبد حتى تُقرر بلدية أوتاوا عكس ذلك».[٢٨] سارعت بالاستفسار:

- ما علاقة بلدية «أوتاوا» بهذا الأمر؟!
- سمعت أن السلطات في دول أخرى تزيل كمية منها بين الحين والآخر حتى لا تنهار الجسور لأن تراكمها يُمثل ثقلا عليها.

قالت المرأة في وجل وهي تضع يدها على كتف حبيبها:

- لكن من أعطاهم الحق في أن يغتالوا مشاعر الناس؟!
- مجلس المدينة قريب من هنا؛ يمكنك أن تتقدمي بطلب ألا يفعلوا ذلك.

قالها وهو يشير إلى أحد الاتجاهات، خيم الصمت لبضع لحظات. أضاف الرجل:

- سمعت أنهم في «روسيا» يقيمون سياجًا حول الأشجار ويخصصون عشرات منها لأقفال الحب.
- هذا أفضل من الحفر على الأشجار وتشويه الجدران والآثار.

خيم الصمت من جديد على المشهد، عادت المرأة تسأل:

- هل تعتقد حقًّا أن بلدية «أوتاوا» قد تقوم برفع هذه الأقفال؟! أريد أن يبقى قفلنا.
- اطمئني يا حبيبتي... سيبقى. أنا واثق من ذلك.
- تقصد سيبقى حبنا.
- نعم... نعم سيبقى حبنا.

وضع يده في جيب معطفه من جديد، هذه المرة أخرج منه تذكرتي سفر، ناولها المطويتين وهو يقول:

- كل عيد زواج وأنت بخير يا أجمل ما حدث لي في حياتي.
- لا تقل...
- نعم... الصين في عيد الحب، يمكننا أن نضع قفلا آخر هناك.
- هل أنت جاد؟
- نعم... حتى تتمكني من إكمال لوحتك عن أقفال العشق، سنتوقف في لندن لست ساعات، ربما تمكنا من رؤية تمثال «المتعانقين» في محطة قطار «سان بانكرس»[٢٩] حسب رغبتك.
- لا أستطيع أن أصدق هذا، كم أنت رقيق المشاعر يا حبيبي.

obeikandl.com

- تستحقين أكثر من ذلك.
- أما أنا وبمناسبة عيد زواجنا الجميل فأحب أن أقرأ لك هذه القصيدة.
- قصيدة! هل تركت الرسم إلى الشعر؟!
- لا... ليست من نظمي، لكنها هزت مشاعري، وأحب أن أشاركك إياها في هذه المناسبة.
- حسن.

أخرجت المرأة مفكرة صغيرة من جيب معطفها، كانت قد حددت الصفحة بوردة ذابلة، سقطت الوردة عن غير قصد منها ففزعت، التقط حبيبها الوردة وهو يقول لها:

- لا تقلقي وردتك بخير.
- بل وردتك أنت.
- أراك غلفتيها بالبلاستيك.
- لو لم أفعل ذلك ما عاشت كل هذه السنين.
- أجل، والآن أين القصيدة؟
- أجل... القصيدة.
- ما عنوانها؟
- On ne m' a jamais dit «لم يقل لي أحد هذا الكلام مطلقًا».

obeikandl.com

- من نظمها؟
- شاعرة كندية.
- من هنا من «أونتاريو»؟[٣٠]
- لا من «كيبيك».[٣١] تخرجت من الفنون الجميلة بمونتريال.[٣٢]
- رسامة أيضًا؟
- أجل.
- ما اسمها؟
- «سيسيل شابو».[٣٣]
- هل التقيت بها؟
- نعم... في معرض الكلية، هل تذكر ذاك اليوم؟
- هل تريدين حقًّا إجابة عن هذا السؤال؟
- كلا.
- كان يومًا رائعًا، أحداثه مازالت محفورة في الذاكرة بكل تفاصيله.
- أريدك أن تعرف يا حبيبي أن هذه القصيدة كانت تذبحني وأنا أقرأها قبل أن نلتقي، أما الآن فأنا أمر عليها بشعور مختلف.

نظرت المرأة إلى زوجها، تنهدت تنهيدة طويلة ثم راحت تقرأ القصيدة:[٣٤]

لم يقل لي أحد البتة ما يُقال للنساء الأخريات

obeikandl.com

من كلمات دافئة تهز المشاعر وتسحر الروح

لم يُقارن أحد بين لون عيني الواسعتين ولون الليل الحزين.

قاطعها زوجها قائلا:

- أنا فعلت ذلك.
- أعرف. دعني أُكمل القصيدة.
- حسن. تفضلي.

لم يقل لي أحد أن شَعري المموَّج تحت وهج الأضواء

هو كالمرآة العاكسة لضوء الشمس.

وأن جبهتي قدت من لوح مرمري جميل.

عاد الزوج إلى المقاطعة:

- أنا قلت هذا الكلام.
- حسن. إذا قاطعتني ثانية فسأخلع هذا القفل وأنهي هذه العلاقة.
- لا بأس. أكملي.

وأن جبهتي قدت من لوح مرمري جميل

وأن حاجبي أشد سوادا من جناحي الغراب

وفمي أحمر كحبَّات الكريز

obeikandl.com

لم يسألني أحد هل أنفي يوناني أم لاتيني؟

وهل قدمي مثل أقدام النبيلات؟

- والآن هل انتهيت؟
- أظن.
- أنا قلت لك هذا؟
- وأنا أحبك حتى الثمالة.
- لقد سحرت روحي وكياني؛ أحبك.
- هذه كلمات مستر «دارسي».
- حقًّا. لم أنتبه إلى ذلك. لكن من «دارسي» هذا؟
- رجل كنت أعرفه في مراهقتي.
- هكذا! لم تحكِي لي عنه من قبل.
- إنه ليس حقيقيًّا. أعني أنه غير موجود.
- كيف؟
- إنه بطل «كبرياء وهوى»[٣٥] ومعشوق النساء.
- تعنين مثل «دون جوان» و «كازانوفا» و»آلان ديلون»؟
- لا، لا. شيء مختلف تماما.
- كيف؟
- دعك من هذا وأخبرني، هل أعجبتك القصيدة؟

obeikandl.com

- أجل. جميلة.
- ارتمت في حضنه وهي تقول:
- كان هذا حالي بدونك؛ وهذا حالي معك الآن.

بحثت الأيادي عن دفء أعمق من دفء القفازات، تعانقت جميع الأصابع، وضعت شفتها السفلى بين شفتيه فأطبق عليهما حتى خالط ريقه ريقها وراح يمتص رحيق الحياة، ما ألذ عناق الشفاه! لابد وأن عسل «كورسيكا» يُستخرج من هذه الشفاه.

انصهر كل منهما في الآخر، ذابا معًا، وغابا عن الدنيا وما فيها. هبت عصفة من الرياح فأرجحت قفلهما ثم عاد ليستقر مكانه كأي شيء في الحياة، حمل القفل الحرفين الأولين من اسميهما OK. كل شيء على ما يرام الآن، وحياتهما جميلة معًا. ربما، لكنها لم تكن دومًا كذلك.

obeikandl.com

(٢)

ما أقسى النبش في ذاكرة مشوهة، ذاكرة مليئة بالحفر والبثور والشروخ، ذاكرة الإنسان ليست كذاكرة الحاسب الآلي فلا يمكن مسحها أو استبدالها، لا يوجد ترياق للذاكرة ولا جبر لها، الحل الوحيد أن تفقدها كلية أو أن يصيبك الخرف أو أن تموت، يمارس بعض الناس هواية النبش في الذاكرة طالما ظل في صدورهم أنفاس، ولم يُصابوا بعد بـ «الزهايمر»، لا يستطيعون التوقف عن فعل ذلك، الذاكرة كالقطط المشاكسة؛ كلما استفززتها خمشتك وخربشتك، على أية حال لا بأس ببعض السجحات لأننا حين نتحدث عن آلامنا نشعر بالراحة ونُشفى جزئيًّا أو وقتيا منها.

ولد (O)عمر أو «عموري» Amauryلاحقًا في أرض الأساطير، بلاد الفراعنة والنيل في منتصف عام ١٩٤٢، في نفس السنة التي دحر فيها الإنجليز «روميل» في «العلمين». قرر رشدي، أبو عمر، الرحيل من قريته بالقرب من «أبو حُمُّص» خوفًا من وصول الصراع إلى الإسكندرية وشمال الدلتا. الحقيقة، كان هذا هو السبب الظاهر الذي تذرع به، أما علة الأمر هو تحرش زوجة أخيه الكبير به وافترائها عليه على نحو يذكرنا

بالأخوين «أنوبيس» و«باتا» في القصة الفرعونية المشهورة. سار رشدي بزوجته شرقًا سالكين دروبًا زراعية ارتفعت فوقها الشبورة المائية لمتر أو يزيد حتى استقرًا في «المنزلة».

اِمتهن رشدي أعمالا كثيرة، يسمون هذا الشخص في مصر «أُجري»، أي أنه يعمل بالأجرة. عمل مع الصيادين في «المنزلة». لطالما اصطحب صغيره إلى البحيرة؛ أحب عمر اللهو على شاطئها ومشاهدة الطيور المهاجرة.

اعتاد صاحب مركب الصيد منح رشدي السمك الصغير إكرامًا لابنه بالإضافة إلى يوميته، لطالما انتابت عمر رغبة في إلقاء هذه الأسماك في البحيرة، في الحقيقة لقد فعل ذلك ذات مرة، لكن الأسماك طفت على الماء، قال له أبوه إنها ميتة، ردد عمر الكلمة: «ميتة!» ماذا يعني ذلك؟ في الأرض موت. عافت نفسه أكلها منذ تلك اللحظة فلا يتذكر أنه تناولها سوى مضطرًا؛ أسماك بطعم الموت.

بالإضافة إلى الصيد عمل رشدي أيضًا في الزراعة وبناء الحظائر وبيع الخضروات وذبح الأضاحي ودش الذرة وأشياء أخرى كثيرة منها تسريج النعال وتأبير النخل أي تلقيحه. في يوم من الأيام اصطحب رشدي وحيده إلى إحدى المزارع، أشجار النخيل في هذه المنطقة شاهقة للغاية، كان الرجل رشيقًا بحيث لا يستغرق صعود النخلة منه سوى دقيقة، يربط

خصره بجذع النخلة باستخدام حبل متين ثم يبدأ في الصعود بقدميه.

فجأة انحلَّ الحبل وانفكَّ على نحو يدعو للغرابة، سقط رشدي من ارتفاع شاهق، صاح عمر مناديًا عليه، لكنه لم يرد. ظن أنه يلهو معه كعادته؛ لطالما تظاهر أمامه بأنه ميت، يكتم ضحكته عندما يضع الصغير إصبعه في أنفه وعينيه، هذه المرة لم يضحك رشدي. لقد كان ميتا بالفعل مثل سمك «البساريا».

ظل عمر ينشد ويترجى أباه أن يكف عن المزاح وينهض، لكنه لم يفعل، أثقلت شمس الشتاء رأس الصبي فنام على ذراع أبيه كما يفعل دائمًا، تأخرا عن العودة للمنزل فخرجت فاطمة تتفقدهما، في المساء كان أبو عمر يرقد في مكان مختلف غير الذي اعتاد النوم فيه لسنوات.

رغم صغر سنه شعر عمر بمرارة الفقد، بات عليه أن يتجرع مرارة اليتم في صمت، أمسى بلا سند ولا وتد، حين يموت آباؤنا نشعر بأننا نبتة بلا جذر سواء كنا أطفالا أو رجالا يافعين.

لم تستطع فاطمة تدبير أحوالها بعد وفاة زوجها، لم يكن لديها من الأقارب في «أبو حُمُّص» من يعتني بها هي وصغيرها، حتى الكوخ الذي سكنه رشدي في «المنزلة» لم يكن له، قررت فاطمة النزوح شرقًا من جديد حتى استقر بها الحال في «بورفؤاد» على الشاطئ الشرقي لقناة السويس مقابل بورسعيد.

رحلت فاطمة بطفلها نحو الشرق إذن، نحو الشمس، نحو الحياة. هكذا فعل بنو إسرائيل من قبل، حين دخلوا التيه في سيناء لأربعين سنة. في الحقيقة لم تنتقل فاطمة من مكان لآخر، بل من قارة لأخرى ومن عالم لآخر ومن دنيا لدنيا أخرى مختلفة كل الاختلاف.

تنتسب «بورفؤاد»، إلى الملك فؤاد. انتهى العمل في إنشائها عام ١٩٢٦. أقيمت المدينة على الطراز الفرنسي وسكنها في البداية حوالي ثمانمائة فرد من الأجانب الذين كانوا يعملون في ورش شركة قناة السويس، مع مرور الوقت أحضر شق من هؤلاء الأجانب، وجلهم من الفرنسيين، عائلاتهم. احتاجت هذه العائلات بطبيعة الحال عمالة محلية من خادم إلى طاهٍ وبواب وبستاني.

كانت أم عمر واحدة من هؤلاء، ساقتها الظروف وأولاد الحلال إلى بيت رجل فرنسي يعمل مشرفًا على هذه الورش السابق ذكرها، كان السيد «روشيتو» رجلا محترمًا ومحافظًا، ترك بيته في مدينة «جرونوبل»[٣٦] على حافة جبال «الألب» وجاء للعمل في قناة السويس. اصطحب زوجته الباريسية وابنته الرضيعة وأتى إلى الشرق لأنه كان مؤمنًا بأفكار «ديليسبس».

حين ولجت السفينة التي أقلته وآخرين في المدخل الشمالي لقناة السويس نظر «روشيتو» إلى تمثال «ديليسبس» وهو يردد كلمات الأخير:

«بدأت الحياة تدب في المعسكر... على يميني الشرق بكامل عظمته، وعلى يساري الغرب حالك وملبد بالغيوم، وفجأة يبزغ قوس قزح بألوانه البهية ويغوص بطرفيه شرقًا وغربًا.»[٣٧]

فعلا اعتقد السيد «روشيتو» أن قناة السويس سوف تُقرب الشرق من الغرب وتخلق واحة من السلام والتجارة بينهما. ما لم يفهمه السيد «روشتو» أنه حتى أسماك البحر الأحمر رفضت الانتقال إلى البحر المتوسط، ما لم يفهمه أن قوس قزح الذي مثل جسرًا بين الشرق والغرب بألوانه المتفاوتة التي ترمز لتباين البشر وثقافاتهم لا يعدو أن يكون ظاهرة فيزيائية عابرة.

أسكنت «مدام روشيتو» فاطمة وابنها في ملحق الحديقة، كانت، بعكس زوجها، تميل للأناقة والمسحة الأرستقراطية، تقضي معظم أوقاتها في الرسم وعزف البيانو، أما زوجها فكان رجلا عمليًا لا يجد غضاضة ولا يستنكف عن العمل بيديه.

أحب آل «روشيتو» أم عمر لأنها كانت نظيفة ومخلصة ومنتجة. صنعت لهم الخبز والجبن والقشدة وزرعت الفجل والجرجير والنعناع في الحديقة، لقد كانت أيضا جميلة ولها عينان بابليتان فاتنتان. ربما كانت من نتاج «الفرنسيس» والمصريين خلال الحملة الفرنسية، وربما لهذا السبب أحبتها عائلة «روشيتو» فالدم يحن كما يقولون.

شعر الزوجان بنوع من التعاطف والأسى لحالها، لذا حين بدأت «كوبسس»،[٣٨] وهو اسم ابنتهما، في تلقي دروسها على يد «المودموزيل هنيريتا»، قرر الزوجان أن يضمَّا إليها عمر ليحصل على قدر من التعليم ويشجع «كوبسس» على التعلم، مع مرور الأيام أصبح عمر يُمضي أغلب أوقات النهار مع «كوبسس» في المنزل، ولا يرى أمه إلا في المساء، كانت فاطمة سعيدة لأن ابنها يتعلم شيئا مفيدًا، ولأنه يُفسح لها المجال لترعى شئون المنزل وتباشر الأعمال المنوطة بها.

مرت الأيام هانئة وجميلة، أصبح عمر و«كوبسس» صديقين في اللعب وزميلين في الدراسة، أمضيا ساعات طوال يلهوان معًا في حديقة البيت، علمته «كوبسس» لعبة «مهد القطة»، وهي عبارة عن خيط يدور بين كفيه وكفيها وتقوم الأصابع بتشكيله على نحو بديع، لم يدر عمر وقتها أن هذا الخيط ما هو إلا خيط القدر الذي ربطه بهذه الفتاة العذبة الرقيقة، علمها عمر في المقابل كيف تُصفر عن طريق وضع إصبعين في فمها، حين رأتها أمها تفعل ذلك لامتها بشدة، وأخبرتها أنه ليس من اللائق بفتاة أن تأتي بهذا الفعل.

تحمست «كوبسس» للرسم، شجعتها أمها على حب الفرشاة والألوان، كانت جدران المنزل زاخرة بلوحات السيدة «روشيتو»، ومنها بشكل خاص هذه اللوحة المبهرة لأميرة أو ما شابه خارقة الجمال. عُلقت اللوحة

في منتصف الردهة بحيث يراها كل من يدلف إلى المنزل. «كوبسس» كان اسم المرأة التي تصورها اللوحة، لابد وأن «كوبسس» الصغيرة قد سُميت على اسمها، من غير المحتمل أن تجد فرنسية تحمل هذا الاسم.

لم تكن العلاقة بين السيدة «روشيتو» وزوجها جيدة؛ كثيرًا ما كانا يختلفان في وجهات النظر، بدا واضحًا وجود تباين بينهما في طريقة التعامل مع الأشياء؛ السيدة «روشيتو» من طبقة نبيلة أو «أرستقراطية» تحلق مع الموسيقى والرسم والشعر وتهتم بأناقتها وهندامها، والسيد «روشيتو» من طبقة «بوليتارية» تقدس العمل وتنتهج أسلوبًا عمليًّا، «برجماتيا» خشنًا في التعامل مع مفردات الحياة.

تنتظره على الغذاء على مائدة زاخرة بالأطعمة والفضيات فتفاجأ به يأكل الخبز والماء وهو يطلي سياج الحديقة، تعد له شاي الخامسة مع الكيك فتفاجأ به يعود من رحلة الصيد في المساء وملابسه متسخة، تحدثه عن الموسيقى والأوبرا والباليه والرسم فيحدثها عن الثورة الصناعية والكساد الكبير واستخراج المعادن وقناة «بنما».

تقاطع مسارهما صدفة أمام شجرة الحياة فبينما راحت السيدة «روشيتو» تصف أوراقها وأغصانها انصبَّ اهتمام «روشيتو» على كيفية الاستفادة من لحائها وخشبها، الشيء الوحيد المؤكد الذي يمكنك أن تستنتجه من علاقاتهما أن الزواج اختيار وليس قدر، وأننا في أحوال كثيرة لا نحسن

الاختيار، بالرغم من ذلك استمرت حياتهما معًا، أو ربما قررا أن يبقيا معًا لأجل خاطر الفتاة الصغيرة إلى أن جد في الأمر جديد.

عام ١٩٤٧ حمل الجنود الإنجليز القادمون من الهند الكوليرا إلى معسكر «التل الكبير» فأتت على الآلاف، ارتعدت فرائص السيدة «روشيتو» وطلبت من زوجها العودة إلى فرنسا، لم يكن من اليسير أن يترك الرجل مسئولياته ومهامه ويعود على هذا النحو، لاسيما وأنه تم محاصرة الوباء وتشديد الحجر الصحي واتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة.

تفاقمت الأمور بينهما فقررت أن ترحل هي و«كوبسس». تمسك السيد «روشيتو» بالفتاة كمحاولة منه للضغط على زوجته لتبقى ففوجئ بها تصمم على السفر بمفردها متحدية إياه؛ جمعت حاجياتها وغادرت على متن سفينة فرنسية إلى حيث بيت عائلتها الباريسي.

زلزل رحيل مدام «روشيتو» كيان «كوبسس» وكاد أن يصيبها بانتكاسة نفسية لولا وقوف أم عمر بجانبها، دخلت الصغيرة في حالة من الصراخ والتكسير والرفض، لكن فاطمة ببساطتها وطيبتها احتوت غضبها وهدأت من ثائرتها. طلب السيد «روشيتو» من أم عمر الانتقال للعيش في المنزل، صارت فاطمة تنام مع «كوبسس» وابنها في غرفة واحدة.

مضت الحياة، استعادت «كوبسس» ثقتها في نفسها وعادت تدريجيًّا للعب والرسم. أجلست عمر لساعتين كاملتين أمامها لترسم وجهه، تأمل

عمر فترك المقعد ليلقي نظرة على هيئته. لم يرق له أنفه في الصورة، أحس أن «كوبسس» بالغت في تصويره بهذا الحجم، ربما مستحضرة قصة «بينوكيو» التي سردتها الآنسة «هنيريتا» على مسامعهما الأسبوع الفائت.

أصبح عمر ملمًّا بالفرنسية بشكل جيد، يتحدث مع «كوبسس» ووالدها بها ويتكلم مع أمه بالعربية ويترجم لهما حين يستعصي الفهم، لكن السيد «روشيتو» كان أيضًا يتحدث بعض العربية، أحب عمر هذا الرجل بشكل خاص، ووجد فيه العوض عن رحيل أبيه؛ كان رجلا طيبًا وخلوقًا وعونًا له على حالة اليتم التي مر بها. طلب عمر من السيد «روشيتو» أن يجد له عملاً في ورش الصيانة فوعده بذلك حين يشتد عوده.

لم يسع السيد «روشيتو» إلى استعادة زوجته أو التصالح معها. أرسلت له بإيعاز من أختها «كارت بوستال» يصور برج «إيفيل» وقوس النصر ربما لتذكره بفرنسا وترقق قلبه، لكنه لم يرد. «الصيف ضيعتِ اللبن» كما يقول المثل العربي.

لطالما نعتته زوجته بـ «الجلف» الذي لا يعرف كيف يتعامل مع النساء. قررت، مدعومة بنفوذ أهلها، البدء في إجراءات الطلاق المدني. لم يهتم السيد «روشيتو» كثيرًا بالأمر، لكنه أخبر «كوبسس» بأن أمها

تستعد للزواج من جديد. قالت «كوبسس»:

- لكن الآنسة «هنيريتا» تقول إن هذا لا يجوز.
- ما هو الذي لا يجوز؟
- الزواج أو الطلاق، لا أدري.
- حسن... سأتحدث معها في هذا الأمر.

بالفعل تزوجت «أوديت»، السيدة «روشيتو»، سابقًا من صديق ثري للأسرة وتنقلت معه بين «سويسرا» و«كوت ديفوار» حيث كان زوجها يتاجر في العاج. أصيبت هناك بحمى المستنقعات. هربت من الكوليرا في مصر لتموت بـ «الملاريا» في ساحل العاج!

انتابت عمر بين الحين والآخر حالات من الإرهاق أثناء لهوه مع «كوبسس». احتارت أمه في حالته فسارعت إلى رقيته وقراءة القرآن واضعة يدها على رأسه، زاد معدل تكرار حالة الإرهاق التي تنتاب الفتى فقرر السيد «روشيتو» اصطحابه لمستشفى شركة قناة السويس. كان الرجل على استعداد لفعل أي شيء ليرد الجميل لأمه.

ذهب عمر مع السيد «روشيتو» إلى المستشفى. كان الأطباء فرنسيين ويونانيين وإيطاليين ومن جنسيات أخرى، أجروا له فحوصات. طلبوا منه خلع ملابسه بالكامل عدا ما يستر به نفسه ورشوا جسمه بنوع معين من المسحوق، ثم أدخلوه غرفة بها مدفأة تعمل بالحطب، لم يستطع عمر

تحمل حرارة الغرفة وكاد يقع على الأرض من الإعياء.

انتحى الطبيب الفرنسي بالسيد «روشيتو» فشرح له الموقف ثم ختم حديثه قائلا : «لون المسحوق لم يتغير كليًا. هذا الصبي لا يعرق على نحو جيد، يجب أن تحافظوا على حرارة جسم الولد؛ أبقوه في الظل في مكان جيد التهوية وألبسوه ملابس خفيفة، فضفاضة وفاتحة اللون. لا تجعلوه يتعرض للشمس أو يبذل مجهودًا كبيرًا. أحسبك تعرف أنه حين تصل درجة حرارة جسم الإنسان إلى واحد وأربعين مئوية يصبح بروتين المخ مثل البيض المسلوق؟»

في الطريق سأل عمر السيد «روشيتو» عن الخطب، أجاب أنه سليم كالحصان. حين عادا للبيت اختلى الرجل بأم عمر، لكن الصبي تسلل متنصتا ليعرف الأمر. قال لها «المسيو روشيتو» بعربية مكسرة:

- سيدة فاطمة... عمر مصاب بمرض غريب. ربما يكون شائعا لدى الخيول، لكنه نادر جدًّا في البشر.
- مرض. يا ستار يا رب. أي مرض؟
- قلة التعّرق.
- كيف؟
- عمر ببساطة لا يعرق، أو لنقل إن غدد التعرق لديه قليلة، أو لا تعمل بشكل طيب.

- صحيح عرقه قليل جدًّا.
- العرق يا فاطمة يرطب الجسم ويخفض حرارته. الإنسان الذي لا يعرق يفقد جسمه القدرة على تبريد نفسه.
- ومن أين أتى له هذا المرض؟!
- ربما كان عيبا خلقيا أو عن طريق الوراثة أو خلافه، حتى الذين يتعرضون للحروق يصابون بهذا المرض، أعلم أن عمر لم يتعرض لحروق، لقد عاين الأطباء جسمه وفحصوه ووضعوه في غرفة شديدة الحرارة فلم يتعرق بشكل طيب.
- وما الحل؟ ألا يوجد علاج لهذا المرض؟
- للأسف.
- ماذا يعني ذلك؟
- دوخة وشد عضلي وتشنجات وهزال واحمرار وأزمات قلبية، لن يعيش طويلا. هذا ما قاله الأطباء. آسف.

انهارت أم عمر على المقعد، حاولت النهوض، لكنها لم تستطع. نظرت إلى السيد «روشيتو» وهي تقول:

- لا... لا ... لا تقل ذلك يا سيدي. لابد من وجود وسيلة.
- هناك حل واحد.
- ما هو؟
- لكنك لن توافقي عليه.

- لا، سأوافق على أي شيء يجعل ابني يعيش، ليس لدي غيره، هو كل ما تبقى لي في هذه الحياة.
- ولذلك قلت لك إنك لن توافقي.
- كلا... كلا... سأوافق، لكن قل لي ما هو. أرجوك؟
- يمكنني أن أستصدر لعمر أوراقا ونضعه على سفينة ذاهبة إلى كندا؛ عمر بشرته بيضاء وشعره أشقر ولون عينيه رمادي فلن يشك أحد فيه، سنُبقي على اسمه، لكن سننطقه بالفرنسية فبدلا من عمر سيصير «عموري»، يعني الشجاعة والقوة، أنا سمعت أن الخليفة عمر كان أيضا جسورًا ومهيمنًا. عمر يتحدث الفرنسية بشكل طيب، بالطبع يحتاج استصدار هذه الأوراق بعض الوقت ومبلغا من المال. سأتكفل أنا بكل شيء.
- شكرا يا سيدي، لكن أين تكون كندا هذه؟
- في القطب الشمالي، هناك لن يشعر عمر بهذه الأعراض التي تنتابه لأن الجو بين بارد ومعتدل طول أيام السنة، عدوه الوحيد هو الأوار. هكذا قال لي الأطباء، يمكنه أن يعيش هناك حياة طبيعية وينعم بعمر مديد.
- يعني هناك لن يموت؟
- لن يواجه الموت بسبب التعرق.
- وهل هناك... لا تؤاخذني... مسلمون؟
- أجل، لكنهم لا يشترطون ذكر الديانة في بيانات الهوية.

- لكن كيف سيتدبر حاله؟!

- إنها أرض جديدة يا فاطمة تحتاج للعمالة. عمر يجيد القراءة والكتابة بالفرنسية.

- الفضل لكم.

- دعكِ من هذا الآن، ما أردت قوله إنها أرض متخمة بالفرص. ربما أفلح عمر في شق طريقه وأصاب ثروة، لا أشك في هذا. إنه فتى ذكي، لا تقلقي عليه. ألا تقولون في مصر إنه لا ينام أحد دون عشاء؟

- أجل.

- والآن ما رأيك؟

- موافقة... موافقة، لكن...

- لكن ماذا؟

- لن أراه ثانية؟

- من يدري؟ العالم يتغير بسرعة يا فاطمة، ربما نجحوا في استنباط دواء لحالته، العلماء يجرون تجارب الآن على استمطار السحب فلا أقل من أن يخرجوا العرق من مسام عمر وغيره.

- لماذا يتعين عليّ أن أتحمل كل هذا؟! لماذا ابني من دون البشر يصاب بهذا المرض؟!

- هذا سؤال في غير محله يا فاطمة؟ ولماذا يأتي آخرون إلى الحياة مشوهين ومعاقين؟! لا أشك في إيمانك. أراك تصلين دائمًا

obeikandl.com

وتتحدثين مع إلهك.

- نعم. أنت على حق، اُعذرني يا سيدي؛ أفقدتني الصدمة توازني. على أية حال شكرًا لك.
- لم أفعل شيئًا.
- يكفي أنك حريص على حياة ابني.
- عمر عندي في معزة «كوبسس» يا فاطمة. يعلم الرب كم أنا حزين من أجله.
- أعلم ذلك.
- لكن يجب أن تهتمي به خلال الفترة القادمة كما أفهمتك.
- إن شاء الله، سأرش ملابسه بالماء وأضع الخيش المبلول على النوافذ.
- ليس لهذه الدرجة.
- لو أننا من الأعيان أو الباشاوات لأمضينا الصيف في الخارج كما كان يفعل أصحاب العزبة التي نشأنا فيها في البحيرة.
- في أوروبا يا فاطمة تنتشر المراوح الكهربية، وفي الولايات المتحدة اخترع رجل اسمه «كارير» جهازًا يبرِّد الهواء. ليتنا نستطيع ابتياع واحد له، لكن هذا الأمر يدخل في باب الاستحالة في الوقت الراهن.
- يفعل الله ما يريد.

obeikandl.com

- والآن جففي دموعك قبل أن تذهبي إليه.

حين عادت فاطمة إلي غرفة نومها قرر عمر أن يرفع عنها عناء إخبارها بأمر مرضه فبادرها قائلا:

- انتابتني الشكوك يا أمي حول حالتي وأنا في المستشفى، سمعت حديث السيد «روشيتو». لا بأس يا أمي. يمكنني أن أرحل، لا تقلقي عليّ، سأنتبه لنفسي وأحاول أن أبقى على قيد الحياة، ما يقلقني هو أنت، فقط عديني أن تتماسكي، وإلا لن أرحل وليكن ما يكون.

ضمَّته فاطمة إلى صدرها وأخذت تنهنه كالطفل، بكت بصوت مكتوم ولم تزد على:

- اللهم إني استودعتك ابني، فلا تُضيع وديعتي، وإذا لم أستردَّها في الدنيا فردَّها إليّ في الآخرة.

تلك الليلة بكى عمر تحت الغطاء، بعد ثلاثة أسابيع كان يحمل حقيبة يد صغيرة ويسير بصحبة السيد «روشيتو»، بدا كطفل تاه عن أهله فوقف مخطوف اللون متوجس الوجه، حاول أن يتماسك من أجل والدته. أدرك الآن فقط أنه فُطِم عنها وأن فطامه كان بداية انفصامه، شعر أنه صرصار مقلوب على ظهره في ليلة باردة، أو كذبابة ملتصقة في طبق عسل.

ودع «كوبسس» في حديقة المنزل كما ودع «بايرون» حبيبته من قبل في قصيدته «بقلوب محطمة ودموع صامتة افترقنا».[٣٩] كان فصل الربيع

قد حل فقطف عمر وردة من الحديقة وقدمها لها، ابتسمت وهي تقبلها، كان صدرها قد بدأ ينبت وجسمها يتشكل كأنثى، لكن هذا لم يمنعها من أن تُقَبِّل عمر وتعانقه، أخبرته أنها ستحتفظ بهذه الوردة.

في المقابل أعطت «كوبسس» عمر مروحة يد ملونة كان أحد البحارة الكوريين قد أهداها لأبيها، وهي نفس المروحة التي هوت عليه بها حين فقد الوعي غير مرة، بعد أن سار عمر لبضع خطوات نادت عليه «كوبسس»، ثم تقدمت منه قائلة:

- عمر... أعتقد أن أنفك كان أكبر في الصورة من الحقيقة.
- ابتسم عمر وهو يجيبها:
- ما فائدة هذا الآن يا «كوبسس»؟
- يوم ما سأرسم لك صورة أكثر دقة.
- الوداع يا «كوبسس».
- إلى اللقاء يا عمر.

أما فاطمة فقد سارت وراءه منتحبة، مثل النسوة «السلافيات» في رواية «جسر على نهر درينا»،[٤] حتى المعدية التي تربط بين «بورفؤاد» وبورسعيد، ظل عمر يلوح لها وهو يستقل المعدية.

تجمدت أمه على الشاطئ وهي تنظر إليه حتى ربطت المعدية في الجهة الغربية للقناة واختفى تمامًا عن ناظريها، عادت يلهج لسانها بالدعاء له،

تجتر الأسى والكمد؛ مسكينة... فقدت زوجها وهي بعد شابة وها هي تودع فلذة كبدها الوحيد إلى المجهول، صدق من قال إن الفراق صعب، وإنه نصف موت.

obeikandl.com

(٣)

ودع عمر «المسيو روشيتو». نصحه الأخير أن يُبقي فمه مغلقا فالسمكة التي تفتح فمها يتم اصطيادها على حد قوله، سلمه إلى أحد قوارب الإرشاد الذي أَصعده بدوره إلى سطح سفينة فرنسية قادمة من الشرق الأقصى في طريقها إلى غربته الطويلة ومنفاه القسري. أوراقه سليمة والمال أصلح ما اعوج منها، أصبح اسمه منذ هذه اللحظة «عموري روشِدي».

نضج قبل أوانه، تحتم عليه أن يحمل همومًا ليست مناسبة لعوده الغض بدلا من أن يحيا أجمل أيامه، على سطح السفينة شعر «عموري» بالخواء.

هل تعرف هذا الشعور حين يخترق البرد ظهرك وعمودك الفقري وأنت مستلقٍ تحت الغطاء؟ هذا الشعور حين تضع قدمك على درجة من السلم غير موجودة؟ هذا الشعور حين ترفض يدك التعامل مع اليد الأخرى؟ حين ينتفض جسمك وأنت نائم؟ حين تعض لسانك؟ حين يصطدم إصبع قدمك الصغير بقطعة من الأثاث؟ حين تتحسس الظلام بأصابع قدميك؟ حين يدخل الصابون في عينيك؟ حين تنحشر بذرة من ثمرة

الجوافة بين أسنانك؟ حين تتناول حبة من الفصفص لتكتشف أنها تحوي رملا؟ حين تسقط من على الفراش أثناء النوم؟ حين ينحبس الدم في أظافرك؟ مثَّل كلُّ هذا مجتمعا شيئا يسيرا مما شعر به «عموري».

ألقى نظرة أخيرة على بورسعيد قبل أن تلج السفينة في البحر المتوسط ثم تتجه غربًا في اتجاه «جبل طارق»، بحث عن ركن على سطح السفينة وسط البضائع فوضع حقيبته وجلس بجوارها، اغتالت الأحزان براءة أيامه، وضعته في اختبار صعب ينوء به الرجال، لم يتخيل أن شيئا بسيطا مثل العرق أو بالأحرى عدم وجوده قد يقلب حياته رأسا على عقب. بالأمس وضع يده على جبين «كوبسس» التي كانت تلاحق قطتها ليعرف ماهية هذا الشيء.

كانت أمه قد قددت له بعض الخبز فأخرج قطعة، لكن نفسه عافتها فهمَّ بإعادتها للحقيبة. في هذه اللحظة أطل عليه فأر متوجس، ألقى له كسرة الخبز فأخذها الفأر وانزوى.

كان الظلام قد حل، خلع سرواله ليتبول في كوة تُستخدم لنزح مياه الأمواج حين تضرب السفينة فشعر بيد قوية خشنة تحيط بقفصه الصدري وأخرى تمسك بمؤخرته وتجذبها نحو حجر منتفخ، حاول الصراخ، لكن اليد الأمامية كمَّمت فاه حتى كاد أن يختنق.

انفك حجاب سورة يس الذي عقدته أمه بحبل حول رقبته، أخذ

جسمه ينتفض، حاول بشتى السبل أن يصل للحجاب الذي سقط على الأرض، حاول أن يخلص نفسه بالركل، لكن دون جدوى، أطاحت الريح بالحجاب فسقط من السفينة إلى مياه البحر، عندها استسلم «عموري» وتوقف عن المقاومة، فجأة لاح بحار ذو شارب ضخم صائحًا:

- «ألفونس». اتركه أيها القذر.

- ماذا تريد يا «مورجان»؟

حرر «ألفونس» «عموري» من قبضته القوية فتنفس الصعداء. وقف يرفع سرواله وينظر إلى الرجلين وهما يتبادلان نظرات التحدي كديكين يهمان بالانقضاض والعراك، قال «مورجان» في نبرة حاسمة:

- حذرتك من قبل من هذه الممارسات الشاذة. حتى مع الأطفال؟! ألا تخجل من نفسك؟!

- لم؟! المثلية إحساس قبل أن تكون ممارسة.

- حقًّا؟!

- ألا تعلم أن ربع الإوز الأسود ونصف ذكور الزراف كذلك؟

- لكننا بشر نتميز بالعقل؛ لسنا حيوانات.

- إذن ماذا تقول في «تشايكوفسكي» و«سقراط» و«أندريه جيد»[٤١] و«ريتشارد، قلب الأسد» وغيرهم؟

- بحار مثقف!

- نتعلم منك.

- أقول إن هذا أمر مقزز ويدعو للقرف.
- لم؟ المثلية ستحل مشاكل العالم حين يزيد عدد هؤلاء الذين تسميهم بشر.
- وماذا تسميهم أنت؟!
- مخلوقات.
- والرب؟!
- الرب لا يعاتبك لأنك مثلي؛ هو لا يهتم بنا أصلا.
- أنت مريض... مريض!
- أحذرك من تكرار هذه الكلمة.
- حسن. سأبلغ القبطان بوجهة نظرك، وتستطيع من الآن اعتبار هذه آخر رحلة لك على ظهر السفينة.
- كل هذا من أجل صبي متخلف؟!
- مثلي وعنصري أيضًا. والآن سر أمامي إلى قمرة الربان لتخبره عن نظريتك في المثلية والغلمانية.
- هل أخبره أيضًا عن الأوراق المزورة التي بحوزة هذا الصبي المصري؟
- قل له ما شئت.

في المساء شاهد «عموري» «ألفونس» يتقدم نحو حاجز السفينة. توجس منه خيفة فانبرى يبحث عن مخبأ وسط الحمولة ويراقب أقدام

obeikandl.com

الأخير، أشعل «ألفونس» سيجارة، وقف لبرهة يحدق في مياه البحر ثم ألقى بنفسه من السفينة.

حقًّا قد تفهم كيف يعمل مكوك الفضاء والقنبلة النووية، وكيف تتحرك الذرات وكيف تتم جراحات المخ وكيف تعيش الكائنات في أعماق سحيقة في المحيطات، لكنك لن تفهم النفس البشرية! حتى الذين عروها لم يفهموها؛ لا «أدلر» ولا «فرويد» ولا «يونج» ولا «بافلوف»[٤٢] ولا أحد فهمها، يبتسم لك الإنسان ويضمر لك الشر، يناقش شيئا وينوي فعل آخر، يتظاهر بالاستماع إليك وعقله يحسب حسبة أخرى! عاهاتنا النفسية تقتلنا تمامًا مثل أمراضنا الجسمانية.

في الصباح انبرى البحارة يبحثون عن «ألفونس»، سأل «مورجان» «عموري»: «هل رأيته ثانية؟» هز الأخير رأسه بالنفي، بعد أن تأكد لطاقم السفينة أن «ألفونس» قد انتحر أخذوا «عموري» ليحل محله في غرفة المحركات التي تعمل بالفحم.

انطلق «عموري» إلى «مورجان»، ترجاه أن يعمل في الدهانات أو النظافة عوضًا عن غرفة المحركات، مرة أخرى ينقذه الرجل من الموت، التقاه قبيل وصول الرحلة إلى مقصدها النهائي يدهن أجزاء من السفينة فقال له:

- «عموري»... كيف حالك؟

- بخير يا سيدي.
- أرجو ألا تكون هذه الرحلة قد تركت لديك أي مرارة.
- لا بأس يا سيدي.
- أخبرني؟
- بماذا يا سيدي.
- أليس غريبا أن يترك «أبولو» الشرق المشمس ويدفن نفسه وسط العتمة والضباب والثلوج؟!
- ظروف يا سيدي.
- أتعلم أننا في أوروبا نطلق على القطب الشمالي «موطن الشياطين»؟
- لم أكن أعرف ذلك يا سيدي.
- إذن أريدك أن تحكي لي قصتك، ضع ثقتك فيّ؛ لقد أحببتك، ربما استطعت مساعدتك، لدي أصدقاء في كندا.

بالفعل سرد «عموري» أمره على «مورجان»، تعاطف الأخير معه، أخبره أنه لف العالم بأسره ورأى أمراضا عجيبة: داء الفيل والشيخوخة المبكرة ومرض الجلد الأزرق وهلم جره، أضاف أن داءه أهون لأن مشكلته سوف تنتهي في كندا، أعطاه خطابا إلى أحد معارفه يدير مدبغة في «مونتريال».

ربطت السفينة في ميناء «سات إيل»[٤٣] أو السبع جزر في «كيبيك».

obeikandl.com

في الميناء وجد «عموري» شاحنات جاءت لتنقل بعض من حمولة السفينة إلى «مونتريال». طلب من أصحاب الشاحنات العمل معهم في تفريغ الحمولة مقابل الطعام وتوصيلة مجانية إلى هناك فنال ما أراد. كان أول اختبار له في العمل العضلي في الأجواء الباردة.

لم يشعر بالإرهاق ولم تنتَبْه الأعراض السابقة للمرض، شعر بالغبطة وتمنى لو استطاع أن يخبر أمه بهذا الأمر، لكنه أدرك أيضًا أن عليه ألا يفرط في التفاؤل، من الضروري أيضًا أن يتوخى الحرص وألا يضطلع بأعمال مرهقة كلما أمكنه ذلك.

وصل «عموري» إلى «مونتريال»، توجه صوب مدبغة الجلود لمقابلة صاحبها، كانت رائحتها لا تطاق، رحب به صاحب المدبغة. انبرى يقرأ خطاب «مورجان» بينما جالت عينا «عموري» في طائفة من الحقائب والأحذية عُلقت خلفه على الحائط، وافق صاحب المدبغة على تشغيل «عموري»، ولأنه لا يملك عملا له في المدبغة في الوقت الراهن أو هكذا قال، ألحقه مبدئيًّا بمجموعة صيد القندس" في الغابات.

بات «عموري» ليلته الأولى في مكان ملحق بورشة الدباغة. أعطوه طبقًا من العدس وبرتقالة قد تكون قادمة من مصر، تشبه سرتها سرة بطنه، تقول الآنسة «هنيريتا» إن سرة البطن تنشأ نتيجة لعقد الحبل الذي يصل الجنين بأمه بعد قطعه، وأنه من هذه اللحظة يبدأ الانفصال عن

الأم تدريجيا. أمسك «عموري» بالبرتقالة وأخذ يقلبها بين يديه، لابد وأنهم قطعوا الحبل الذي يصل هذه البرتقالة بأمها الشجرة. راح ينزع قشرتها بأظافره في غيظ وكأنه ينزع جلده هو، بعد أن قشر البرتقالة عافت نفسه أكلها، في هذه اللحظة سمع صوتًا يقول له:

- ألا تريد هذه البرتقالة؟

نظر إلى مصدر الصوت فوجد شابًا مهقا من «الألبينو» أو أعداء الشمس كما يُشار إليهم، يبدو أنه ليس الوحيد الذي قصد كندا هروبًا من الشمس، لكن يا ترى من أي الأصقاع جاء هذا الفتى؟ رد عليه «عموري» بلطف:

- لا. يمكنك أخذها.

تسلم «عموري» صندوقا خشبيا صغيرا وضع فيه متعلقاته وحقيبته، بينما راح يُفرغ حاجياته في الصندوق وجد مروحة «كوبسس». لمعت عيناه بالدموع حين تذكر حجاب أمه الذي ابتلعه البحر، دفع ثمن أشياء لم يفعلها، لم يدله أحد على إثمه والذنب الذي اقترفه.

احتاج «عموري» قفلا لصندوقه الخشبي، ليس معه مال ليبتاع قفلا، تقدم منه شاب من الهنود الحمر» في العشرينيات من عمره قائلا:

- هل تريد قفلا؟

- أجل.

- لدي قفل زائد عن حاجتي. سأقايضه بهذه المروحة الجميلة.
- نزع «عموري» المروحة من يد الشاب قائلا:
- مستحيل.
- ما قيمة مروحة كتلك في كندا اللهم إذا كانت للزينة؟
- ليس هذا من شأنك.
- دعنا نلعب الورق عليهما.
- آسف.
- ربما كسبت القفل واحتفظت بالمروحة.

نظر «عموري» حوله فوجد الفتى «الألبينو» يهز له رأسه ألا يفعل، شعر «عموري» بالقلق على أغراضه وأوراقه دون قفل فقرر المحاولة، صبي غض ليس له تجارب لا في لعب الورق ولا في الحياة. خسر وملأت الدموع عينيه وهو يرى هذا الشاب، «أساناك»، يأخذ مروحة «كوبسس»، شعر أن «كوبسس» ضاعت منه إلى الأبد.

في الصباح الباكر انطلق مع آخرين إلى الصيد، في الغابة تقابلوا عن طريق «أساناك» مع مجموعة من السكان الأصليين الذين حيوهم قائلين «أولاكووت»،[٤٥] والتي تعني «صباح الخير» بلغتهم، كانوا محترفين بحق في صيد القندس ونصب الفخاخ له داخل السدود الخشبية التي يُقيمها في الماء.

القندس حيوان من القوارض البرمائية، يبلغ طوله قرابة المتر. يطلقون عليه «مهندس السدود» فهو بحق أمهر من الهولنديين في بنائها. يبرع القندس أيضًا في التزحلق على الجليد. فراء هذا الحيوان مطلوب بشدة في أوروبا حيث تُصنع منه معاطف النساء.

جلس «عموري» في القارب الذي راح يشق المستنقعات، كانت وظيفته هي سلخ القنادس الميتة من جلودها، في البداية تولد لديه خوف من فراء الحيوانات أو رهاب الجلد؛ مات في جلده من الخوف.

شعر بالشفقة تجاه القنادس، لكنه لم يتوقف عند هذا الأمر كثيرًا. تحولت رهبته إلى حنق على جلده وجلود كل الحيوانات، أخذ ينزع جلود القندس في مقت شديد، تمنى لو خرج هو أيضًا من جلده. تمنى لو انسلخ منه، تمنى لو استطاع تغييره مثل الثعابين.

بدأ ضوء النهار في التلاشي، عادة ما يتوقف الصيد في هذه التوقيت، لم تكن الحصيلة وفيرة ذاك اليوم، ربما تشاءم الصيادون من «عموري»، لكن لم يفصح أي منهم بذلك.

كان قائد المجموعة فرنسيًّا أتى من أوروبا ليشرف على شحن أكبر كمية من جلود القنادس، قرر الرجل أخذ راحة لتناول العشاء ومواصلة الصيد، تذمر السكان الأصليون وقرروا الرحيل بعد أخذ لحوم القنادس ومستحقاتهم المالية، استدعى التاجر الفرنسي «أساناك» قائلا:

- أُطلب منهم أن يعودوا وسوف أجزل لهم العطاء.
- سيدي... لن يعودوا.
- ما الذي يجعلك متأكدا؟!
- في معتقدات «الإنوت»[٤٦] من يصطَد ليلا يتعرض لهجوم «الأماروك».[٤٧]
- وما هو «الأماروك»؟!
- ذئب ضخم.
- ما هذه الخرافات! هيا إلى الصيد... هيا.
- عفوا يا سيدي، ولكني سأبقى مع «عموري» في القارب.
- أنت وشأنك.

في المساء عاد الفرنسي وطاقم الصيد بدون المزيد من القنادس. هاجمهم قطيع من الذئاب وسلبوا صيدهم، كان الفرنسي حانقا وتشاجر مع صاحب المدبغة، وبخه الأخير لأنه لم يستمع لنصيحة «الإنوتيين».

عاد عموري إلى غرفته مذهولا، لم يصدق ما شاهد وعاين من أحداث، وجد «عموري» مروحة «كوبسس» فوق الصندوق، نظر إلى «أساناك» الذي ابتسم له قائلا:

- شاهدت الدموع في عينيك، لابد وأن هذه المروحة تعني الكثير لك.

obeikandl.com

- أجل، أعطتها لي الفتاة الوحيدة التي تعلق بها قلبي.
- يعتقد الناس أن الهنود الحمر وحوش ليس لهم قلب، هذا السوار الذي أرتديه لأمي، كدت أموت يوما حين سقط مني في البركة، لكني استخلصته.

تذكر «عموري» حجاب أمه، تمنى لو استطاع هو أيضًا استخلاصه.

تابع «أساناك»:

- يمكنك الاحتفاظ بهذا القفل، صُنع في النرويج، يسمونه قفل الفايكنج.»
- حقا.
- لا تخف. ليس قفلا مسحورًا. سمعت أن النسوة في بلاد الشرق يضعن السحر في أقفال ثم يلقونها في جبٍّ أو ما شابه.
- ولماذا يفعلن ذلك؟!
- يربطن أزواجهن فلا يرون ولا يعاشرون غيرهن.

تمنى «عموري» لو ارتبط مع «كوبسس» بقفل مصبوب بلا مفاتيح، تمنى لو التصق جلده بجلدها، تمنى لو سكنها أو سكنته.

معدته فارغة دومًا، لكنه يعيش حالة من الامتلاء؛ قلبه متخم بالحزن، عيناه تفيضان بالدموع دوما، ذاكرته مثخنة بالجراح، ينام كل يوم على أمل أن الغد أفضل، ثم يعيش الوهم من جديد. شعر كفرخ طير سقط من العش، أو كسلحفاة بحرية وليدة تشق طريقها نحو البحر بينما تترصد

obeikandl.com

بها المفترسات على اختلافها، الموت مُحدق والطريق طويل والشر مُتمكن.

ومضت الشهور تترى. انحصرت حياة «عموري» بين صيد القنادس أو بالأحرى سلخها والعمل في المدبغة والنوم في الملحق التابع لها، في العطلات اعتاد التجول في «مونتريال».

قرر يوما بعد أن استقرت أموره أن يكتب لوالدته و»كوبسس» والسيد «روشيتو»، أحضر ورقة وقلمًا وبدأ يكتب بالفرنسية، حكى لهم عن عمله في المدبغة وكيف يُمضي وقته، طمئنهم على صحته وأحواله.

بعد مرور شهر عاد له خطابه على المدبغة؛ عنوان المنزل صحيح في «بورفؤاد»، لكن ساكنه لم يعد موجودا. استعلم عن هذا الأمر من بعض البحارة فعلم أنه تم إجلاء الأجانب من منطقة القناة.

استسلم «عموري» لمصيره، عاد و»أساناك» يوما من الصيد ليجد هرجا ومرجا في المدبغة؛ تعرض الفتى «الألبينو» لحادثة مروعة. زلت قدمه فوقع بين ماكينة ترقيق الجلد وماكينة الصباغة. نُقل الفتى للمستشفى. عاده «عموري» و»أساناك» وهما يحملان صندوقه الخشبي.

بالرغم من بتر ساقيه كان الفتى في حالة معنوية جيدة. ضحك وهو يقول: «هل رأيتما جلدي بعد أن صبغته الماكينة باللون البني؟» طلب من «أساناك» كسر القفل، لم يكن في الصندوق سوى بعض الغيارات الداخلية وإنجيل وجوارب. ناوله «عموري» الإنجيل حسب طلبه، في

المقابل أعطاه الفتى جوارب وهو يقول: «لم أعد بحاجة لها. جوارب جيدة من الصوف، أهداها لي راعي الكنيسة، يمكنكما اقتسامها».

ومضت الأيام كسابق عهدها، لم يكسب «عموري» مالا كثيرا من صيد القنادس؛ فراء القندس ليس كبيرا، كما أن أعدادها آخذة في التضاؤل. مما زاد الطين بله أن السلطات المحلية سعت إلى تنظيم هذه الأمور وملاحقة الصيد الجائر، بدأت تظهر في أوروبا على نجل واستحياء أصوات تنادي بالعزوف عن شراء الفرو.[٤٨]

في ربيع ١٩٦٤ خرج «عموري» بصحبة «أساناك» لحضور احتفال «سكر الجليد» في شارع «سانت كاترين»، يصب السكان سكر «الكراميل» الساخن على الجليد فيجمُد في الحال، ثم يقومون بلفه وتوزيعه على الحاضرين. ناولت فتاة فاتنة «عموري» بعضًا من هذه الحلوى فأخذها ممتنا وهو يتفرس في جمالها الأخاذ، انتحى به «أساناك» إلى حيث تُقام مباراة لهوكي الجليد وهو يقول:

- «عموري»...هل تريد أن تكون لك فتاة ساحرة مثلها؟
- لا بأس.
- وأن تكون لديك سيارة وجهاز تلفزيون كبير؟
- أجل... من دون شك.
- وهل تريد أن تسكن إحدى هذه الشقق الفاخرة كالتي حولك؟

- لن أمانع، لكن ما اسم هذا الشارع؟
- «سانت كاترين».[٤٩]
- «سانت كاترين»؟ سمعت هذا الاسم من قبل.
- يقول كاهن الكنيسة إنها قديسة من بلاد الأهرامات، وأنها مدفونة في جبل سيناء.
- مصر.
- يقول الإنجيل إنه بلد مبارك.
- أجل، وجميل جدا.
- وما الذي يجعلك متأكدا؟! لا أظن أنك وضعت قدمك خارج كندا.
- سمعت ذلك من بعض البحارة.
- حسن.
- وما هذا المبنى هناك؟
- ألا يمكنك أن تقرأ لافتته يا «عموري»؟
- بلى.. Musée d' art contemporain «متحف الفن الحديث». بناية جميلة تخطفك وتشدك إليها. دعنا نزورها.
- ما هذا الهراء يا «عموري»؟! هل تفهم شيئا في الفن الحديث؟!
- كلا، لكني كنت أعرف فتاة تحب الرسم.
- هل فقدت عقلك، تضيع نقودك على مشاهدة الصور! يمكنك

obeikandl.com

معاينة العديد منها في الكنيسة، بالمناسبة يا «عموري»... إلى أي كنيسة تذهب؟

- لا أذهب إلى أي كنيسة.
- كنت متأكدا.
- من ماذا؟
- من أنك يهودي.
- يهودي! لنعد إلى حديثك الأول عن الشقة والتلفاز والسيارة إذن.

في هذه الأجواء أوعز «أساناك» لـ «عموري» أن يتركا صيد القنادس إلى صيد الدببة، أضاف: «يباع فراء الدببة بمئات الدولارات الكندية، يمكننا أن نحقق ثروة في وقت قصير، تعرفت على رجل من سيبريا طلب مني أن أنضم إليه لصيد الدببة في جزر الملكة إليزابيث.° ما رأيك؟» لم يستغرق الأمر كثيرا؛ سرعان ما وافق «عموري» على اقتراح «أساناك».

نعم أراد أن يعاشر فتاة جميلة وأن يقطن شقة متجددة الهواء ذات مطلات شيقة وأن يستمتع بطعام شهي وأن تنتفخ حافظة نقوده، لكنه أراد أيضًا أن يهرب من سلخ القنادس. تولدت لديه طاقة كبيرة من الكره والعنف، أراد أن يحرر عقله ويُخلص نفسه من هذا الميل إلى التعذيب. يذكرنا هذا بلورانس العرب وهو يقول لقائده «أللنبي»: «لقد قتلت رجلين من العرب أمس، أحدهما كان صبيًّا.» رد «اللنبي»: «هذا أمر

obeikandl.com

عادي وطبيعي.» علق لورانس: «كلا. شيء آخر؛ لقد استمتعت بما فعلت.»

obeikandl.com

obeikandl.com

(٤)

نشأت (K)، «كوبسس» فرنسية المولد، مصرية الهوى. كان وجهها مريحا وجماله ربانيا كما يقولون، أمضت عقدها الأول في «بورفؤاد»، دب الخلاف بين أبيها وأمها هناك - كما أسلفنا- فعادت الأخيرة إلى فرنسا.

أحبت أمها لأنها قدمتها لعالم جميل من الفن وجعلتها تلتقط بعينيها ما لا يراه الآخرون، بالرغم من ذلك أحست «كوبسس» أنها غريمتها في حب أبيها، والد «كوبسس» هو حبها الأكبر، لو أجروا مراجعات لمصطلحات علم النفس لاستبدلوا «عقدة ألكترا» بـ «عقدة كوبسس».

الفتاة ضرة أمها كما يقولون؛ كل فتاة بأبيها معجبة لأنه لا أحد غيره يُشعرها بأنها أميرة، لطالما سارت «كوبسس» خلف والدها في المنزل، تناوله أغراضه، تحضر له خفيه، تجلس بجواره وعلى حجره. تجره من يده لتريه دميتها وتشده من ذقنه لينظر إليها.

تمنت «كوبسس» لو أن أم عمر هي أمها، امتلكت هذه السيدة قدرا كبيرًا من التعاطف والحنان عزَّ أن تجده لدى غيرها، بالرغم من أنها لم تتعلم ولا تفهم الكثير من مفردات عصرها، إلا أنها كانت بارعة في أسر

قلوب من حولها، في بعض الأحيان تمنت «كوبسس» أن يتزوج والدها من امرأة مثلها؛ امرأة بسيطة وجادة وغير متكلفة أو متكبرة.

كان عمر كل ما لدى»كوبسس» من أصدقاء، بعد رحيل السيدة «روشيتو» تلاشت المسافات بينهما، حرصت السيدة «روشيتو» على هذه الفوارق، ولم تكن تسمح لعمر بأن يُمضي الليل في المنزل، أصبح عمر محور حياة «كوبسس».

حزنت «كوبسس» كثيرًا حين علمت بمرض عمر، لم يعد يلعب معها في الهواء الطلق ولم يعد يعدو وراءها. في يوم من الأيام أخبر السيد «روشيتو» ابنته أن عمر سيرحل وشيكا للعلاج في الخارج، أكد لها أنه سيعود، أظلمت الدنيا في وجه «كوبسس» وانهار العالم من حولها. بين يوم وليلة لم يعد هناك من يوقظها في الصباح أو يلعب معها أو يناولها ألوانها.

كم تصبح الحياة مستحيلة حين ينسحب منها شخص اعتادت عيناك رؤيته كل فينة، يتحول الكون إلى جماد؛ بل إن الجماد أكثر حيوية، بعدها تدخل أنت أيضًا في هذه الحالة الصلبة.

لم يعد عمر موجودا. يوم أن رحل نامت «كوبسس» في حضن أمه الدافئ. لم تكف أم عمر عن البكاء. تذكرت «كوبسس» أمها وتساءلت هل تراها تذرف الدمع على غيابها؟ لا تظن؛ لو أنها تُمثل أهمية كبيرة لها

لجاءت لزيارتها.

مرت الأيام والشهور ولم يعد عمر ولم تصل منه أو عنه أية أخبار، أدركت «كوبسس» أنه لن يعود، صحيح أنه في رحلة علاج، لكنه لن يعود، وجود عمر بجانبها كان يُطفئ من نار غيرتها على أبيها، بعد رحيله لاحقت عيناها أباها في حركاته وسكناته.

في يوم من الأيام وجدت معلمتها، الآنسة «هنيريتا»، تخرج من غرفة أبيها وهي تصلح ملابسها، أدركت «كوبسس» أنها تقيم علاقة معه. فاتها قطار العلاقات الغرامية ورأت في احتياج السيد «روشيتو» لامرأة فرصة جيدة لاكتشاف عالم الرجال، لا بأس حتى لو غيرت بعض مبادئها أو حتى تنازلت عنها في مقابل أن تشعر بلمسات أصابع رجل على جسمها.

شعرت «كوبسس» بالحنق عليها وتمنت لو خنقتها بيديها، أثناء الدرس التالي لهذه الواقعة سكبت «كوبسس» الحبر على فستان معلمتها ثم أخذت تتأسف لها عن هذا الخطأ غير المقصود، أضمرت لها «كوبسس» المزيد، لكن الأيام لم تمهلها لتنفيذ خطتها.

في صباح يوم شديد الحرارة من شهر يوليو لعام ١٩٥٦ أمر السيد «روشيتو» بإعداد الحقائب على عجل؛ «سنعود إلى فرنسا. لقد أمم الجنرال ناصر القناة، ارتكب حماقة كبيرة، يقول إنه لا يأتي من الغرب شيءٌ يسر القلب، نسي في لحظة ما فعله ديليسبس وشامبليون وميريت وماسبيرو

من أجل هذه البلاد»، كان هذا بعضا مما قال، لم تفهم «كوبسس» كثيرا، لكنها سارعت بسؤال والدها: «هل سنصطحب معنا أم عمر؟» جاء رد السيد «روشيتو» بالنفي.

كانت عائلة «روشيتو» هي آخر من رحل من الأجانب عن «بورفؤاد»، حزنت «كوبسس» بشدة لمفارقة هذه البلدة، أمضت بها اثني عشر عاما، وقفت أم عمر حائرة، تعلم أنه برحيل آل «روشيتو» تنقطع آخر همزة وصل محتملة بينها وبين ابنها، أعطاها السيد «روشيتو» مبلغا جيدا من المال، سلمت المرأة المسكينة أمرها إلى خالقها.

لا يمكن وصف مشهد الوداع، أحبت فاطمة «كوبسس» حبًّا صادقًا وأحبتها الأخيرة أكثر من أمها، تجددت جراح فاطمة القديمة لفراق ابنها الوحيد، هزلت المرأة ووهنت بشكل عجيب في السنوات الأخيرة. مسكينة.

تمنت «كوبسس» لو بذل والدها جهدا للحصول على أوراق تمكن فاطمة من السفر معهما إلى فرنسا، لكن همه الأكبر انصبَّ على المغادرة سريعًا لأن فرنسا وإنجلترا شرعتا في التهديد بعمل عسكري في منطقة القناة، أفسدت السياسة حلم «ديليسبس»، شريان السلام تحول إلى ذراع للحرب. صحيح... الحب أصعب، الحرب أسهل.

عاد السيد «روشيتو» وابنته إلى «جرونوبل»، التحقت «كوبسس» بمدرسة نظامية، علمت بوفاة أمها. سبب لها هذه الأمر أزمة جديدة، لكنها

سرعان ما تغلبت عليها.

لم يسع السيد «روشيتو» للزواج ثانية، لم يشأ أن يُعقد المسائل بالنسبة لابنته. يعلم أنها لا تتقبل أي امرأة في حياة أبيها، ما زال يتذكر بشكل خاص تلك النظرة التي رمقت بها الآنسة «هنيريتا» وهي تخرج من غرفته في «بورفؤاد».

اكتفى السيد «روشيتو» بمعاقرة الخمور والتردد على الساقطات في بيوت الدعارة والالتقاء بأصدقائه القدامى والتحدث معهم عن مبادئ الثورة الفرنسية وعن ذكرياته في العمل بقناة السويس، وعن «ديليسبس»، مثله الأعلى. ثار يومًا على أحد أصدقائه حين انتقد قناة السويس لأنها حالت دون هجرة الحيوانات من أفريقيا لآسيا، بالرغم من أن طرح الرجل كان سليمًا إلا أن «روشيتو» تصدى له لأن للقناة فوائد عظمى تتضاءل بجانبها هذه «السفاسف»، على حد قوله، كانت القناة بالنسبة له شيئًا مقدسًا لا يُمس، كان السيد «روشيتو» ينتمي لنوعية من البشر تدمن العمل، نوعية تموت إذا سُرق منها حلمها.

أنهت «كوبسس» دراستها الثانوية وتقدمت لدراسة الفنون الجميلة، وتحديدا الفن التشكيلي في جامعة «السوربون»، هناك استحوذت عليها هذه المدينة العجيبة، لو لم تكن فرنسية لقلنا إنها يابانية تمر بأعراض «متلازمة باريس»[٥١] من دهشة وتطلع.

كانت «كوبسس» جد مختلفة عن الباريسيات في طريقة تصفيف شعورهن، وفي طريقة إظهار مفاتنهن، كانت مختلفة في لبسها الطويل وجلستها المحتشمة، الاختلاف الأكبر كان في تفكيرها وطريقة تعاطيها مع الحياة، وجدت صعوبة في الاندماج في المجتمع الباريسي.

أرادت أن تقيم عند جدتها، لكن السيد «روشيتو» رفض ذلك، بل طلب منها أيضًا عدم التردد عليها، ما زال في قلبه شيء من هذه العائلة. لا ينسى أنهم رفضوا خطبته لابنتهما لغياب التوافق الاجتماعي على حد قولهم، ليتهم تشبثوا بالرفض، كانت النتيجة أنه تزوج دمية جميلة بلا عقل.

كان البديل أمام «كوبسس» هو المدينة الجامعية، شاركتها الغرفة فتاة برتغالية تُدعى «ماتيلدا» قدمت «السوربون» لدراسة الفن التشكيلي. تعاملت معها «كوبسس» بحذر شديد، لكن «ماتيلدا» كانت بارعة في إزالة القيود وتخطي الحواجز.

خرجا معًا في بدء العام الدراسي لمشاهدة مسرحية «البخيل» لـ «موليير». كان فخذا «كوبسس» البضَّان يشعان نورًا بالرغم من عتمة المسرح، في وسط العرض وضعت «ماتيلدا» يدها بشكل عابر على أحدهما فارتبكت «كوبسس» وحاولت عبثا التزحزح حتى نهاية المقعد. لقد علمتها «فاطمة» ألا تسمح لأحد بلمس جسمها.

لم تكن هذه الفتاة مريحة؛ تجلس في الغرفة شبه عارية. رسوماتها

«بورنوجرافية» و»إيروسية» بشكل فاضح، في حديثها كلام مدسوس وانحرافات واضحة، تتعمد الدخول عليها وهي تستحم بحجج واهية، قالت لها يومًا:

- ظهرك جميل يا «كوبسس» يشبه عمودا من الرخام الروماني.
- حقا؟
- هل تريدينني أن أساعدك في غسله؟
- شكرا لك... يمكنني الوصول إلى كل شبر في جسمي.
- حين خرجت «كوبسس» من الحمام قالت لها:
- «كوبسس»... لدي «كريم» يفتح مسام الجلد ويندیه، أحضرته معي من البرتغال، هل تريدين أن تجربيه؟
- لا بأس. ما اسمه؟
- «صافو».[٥٢] على اسم شاعرة إغريقية عاشت في القرن السادس قبل الميلاد.
- سمعت عنها.
- ماذا سمعت؟
- سمعت أنها ولدت في جزيرة «ليسبوس».[٥٣]
- فقط؟
- وأنها فتحت مدرسة أو ما شابه لتعلم الفتيات الرقص والغناء.
- حدث ذلك بعد أن فشلت في حياتها العاطفية لأن زوجها

لم يستطع إشباع حائجتها الجنسية الأمر الذي جعلها تنفر من الرجال.

- مخبولة.
- أو تعتقدين ذلك؟!
- مؤكد، تفتح مدرسة للفتيات لتعاشرهن!
- لا كانت تتفحص أجسامهن فقط لتكتب فيهن الشعر، أما الجنس فكانت تمارسه مع عشيقتها المفضلة "آتيس".

على عكس «كوبسس» كانت «ماتيلدا» فتاة متحررة لأبعد الحدود، كانت عضوا مؤسسا في الحركة النسوية ببلدها، كما كانت عضوا نشطا في جماعة «الهبيين»[٥٤] و«البوهيميين». تتكلم عن الجنس دون مواربة وتفرط في انتقاد «الزنابير»، وهذا هو اللفظ الذي تستخدمه دوما للإشارة إلى الرجال.

عكست لوحاتها هذه الأفكار بشكل كبير، رسمت صورة لمحاربات «الأمازون» وتحدثت مع «كوبسس» باستفاضة عن خاطرة المجتمعات التي لا يسكنها سوى النساء، سخفت «كوبسس» من الفكرة فحتى لو نحينا التكاثر جانبا فإن أبسط الأشياء في الكون تقوم على فكرة هذا التداخل بين الذكر والأنثى كما مصارع النوافذ ومخارج الكهرباء.

رسمت «ماتيلدا» أيضا صورة لراهبتين في حالة من الهيام والنشوى

وقد وضعت إحداهن سبابتها في فم الأخرى، انتهت مؤخرا من صورة ثالثة لـ «جان دارك» وهي تحارب بملابس فاضحة، انتقدت «كوبسس» اللوحة وسخرت منها، علقت «ماتيلدا» قائلة:

- ألم ينتهِ إلى علمك أن عذراء «أوريان»، «جان دارك»، كانت سحاقية أو لديها ميول أنثوذكرية؟
- ما هذا التخريف؟!
- على الأقل هناك من يؤمن بذلك.
- هل لديك دليل؟!
- وهل لديك أنت دليل أنها لم تكن كذلك؟
- البينة على من ادَّعى.
- آسفة. أعرف أنها رمز مبجل لديكم في فرنسا، لكن ما الذي يضيرها إن كانت سحاقية من عدمه؟! هل يغير ذلك من نظرتكم إليها وإعجابكم بجسارتها؟
- لا.
- وكذلك هو الحال بالنسبة لـ «ماري أنطوانيت» و»فرانسوا ساجان» و»فيرجينيا وولف» و»إيلانور روزفلت» و»مارلين ديتريش».[٥٥]

في يوم من الأيام تطوعت «ماتيلدا» بقص أطراف شعر «كوبسس» حتى يبدو متناسقا، راحت يداها تداعبان خدي «كوبسس». غاص

صليبها الكاثوليكي المتدلي من رقبتها في شق نهدي «كوبسس» ثم تبعته أصابعها، شهقت الأخيرة وشعرت برجفة وحالة من الخدر، أرادت أن تقول لها توقفي عن فعل ذلك وتزعق في وجهها، لكن الحقيقة هي أنها كانت مستمتعة بهذا التدليك الرقيق.

في هذه الليلة عاشت «كوبسس» أول تجربة لها مع امرأة؛ في الحقيقة لقد كانت «ماتيلدا» امرأة «مسترجلة» كما يقولون، منكباها ونهداها صغيران ولديها عضلات في ساقيها ربما لأنها تمارس السباحة منذ الصغر، لا غرو أن هذه الفتاة من «لشبونة» التي يُشبه نطقها الكلمة التي تشير للمثلية عن النساء، «ليزبيان» **Lesbienne**.

حاولت «كوبسس» تجنب «ماتيلدا» قدر المستطاع، لم تكن راضية بشكل عام عن تركها تعبث بتفاصيل أدق أعضائها خصوصية. طلبت «كوبسس» من والدها ترك المدينة الجامعية لأنها لا تستطيع المذاكرة فيها، عرضت عليه الانتقال للعيش مع جدتها، لكنه رفض. أرسل لها المال اللازم لتنتقل للإقامة في شقة «ستوديو» في باريس. أخبرها ألا تقلق لأن لديه بعض المدخرات من عمله في قناة السويس.

عاشت «كوبسس» سنوات سعيدة في هذه الشقة الصغيرة، دأبت على التردد على متاحف الفنون لمعاينة أشهر اللوحات في العالم أجمع. اقتربت أكثر من عوالم «مونيه» و«سيزان» و«فان كوخ» و«رامبرانت».

متحف «اللوفر» كان مكانها المفضل، كلما أرادت أن تأخذ شحنة فنية إبداعية ذهبت إلى هناك، في أول زيارة لهذا المتحف وقفت أمام «الجوكندا» أو «الموناليزا» دون حراك لساعة أو يزيد حتى شك الحراس أنها تخطط لسرقتها، شاهدت أيضًا لوحة لسيدة من «بورتريهات الفيوم». تُشبه فاطمة لحد كبير؛ تفتقد «كوبسس» أم عمر بشدة، ليتها تستطيع العثور عليها واستقدامها لتعيش معها، ليتها تستطيع.

obeikandl.com

obeikandl.com

(٥)

بعد أن جهزا العدة والمؤن انطلق «أساناك» و«عموري» شمالا إلى أقصى بقعة كندية في المحيط المتجمد الشمالي حيث الليل القطبي وشمس منتصف الليل، حيث الأبيض هو سيد الألوان والغطاء الثلجي السميك يدوم عشرة شهور أو يزيد، استقبلهم القطب الشمالي بعاصفة ثلجية، شعر «عموري» أنه على وشك الموت متجمدا، وأن أجهزة جسمه ستتوقف عن العمل، هل تراه فر من الموت بالاحترار في مصر ليموت بالبرودة هنا؟! هل هرب من ضربة شمس ليموت بقرص البرد؟! حثه «أساناك» قائلا:

- هلم يا «عموري».
- أشعر أن أنفي غير موجود.
- لديك أنف كبير.
- حقا؟ قيل لي ذلك من قبل ولم أصدق.
- تحتاج لقبلة من فتاة «إنوتية».
- كيف؟

- في تقاليد «الإسكيمو» يقبل الفتى فتاته بحك أنفه بأنفها.
- ماذا تقول؟
- أقول يحكان أنفهما معا فتتولد الحرارة، شعور جميل، الحديث عن النساء يعطينا الدفء.
- هل لديك امرأة.
- أعرف فتاة «فيتنامية» تعمل في أحد الفنادق بـ «مونتريال». أشعر برغبة شديدة في اقتسام حياتي معها، بعد رحلتنا هذه وحالما يتوفر معي المال سأطلب منها الزواج.
- أجل.
- وأنت؟ ألك فتاة؟!
- ما زلت أبحث عنها.
- لا تتوانَ في ذلك يا «عموري» إذ ما قيمة الحياة وقيمة كدحنا وسعينا إن لم يكن فيها زوجة وأطفال وحياة مستقرة وطعام ساخن وفراش دافئ؟
- نعم... أصبت.

كان «أساناك» بحق ابن بيئته وبارع في الملاحة عبر القطب. حاول «عموري» أن يقترح عليه بعض المسارات، لكن الأخير قال له بثقة: «لا يمكنك أن تبيع الثلج للإسكيمو.» فعلا نجح «أساناك» بمهارة المتمرس في الوصول إلى حيث خيم «السيبيري» المدعو «ياكوف».

بعد تعارف بسيط جلسا يتناولان معه الحساء الساخن، شرح لهما «ياكوف» طريقة صيد الدببة وأماكن تواجدها، حذر «عموري» من الثلوج الخادعة وانهياراتها المستمرة وجورها العميقة التي يعلق فيها الشخص حتى الموت، قرر أن يتناوبوا حراسة الخيمة والمؤن خشية الذئاب.

جلس «عموري» في نوبته أمام الخيمة ينظر إلى الثلوج ويتعجب من حاله في هذه الحياة؛ لم يكن يتخيل أبدا أن يصل لهذه النقطة من الكرة الأرضية، ليس راضيا عن حياته بكل تأكيد، جاء إلى هنا ليُطهر قلبه من الكراهية، خشي أن يتحول إلى عدو لنفسه وللبشر.

أشعل سيجارة أخرى، أجمل ما يمكن أن تفعله في القطب هو التدخين، نظر إلى الثلوج وهي تتشكل في صور مختلفة، رأى فيها وجه أبيه وأمه و»كوبسس» والسيد «روشيتو» وأرانب وحمام وأشياء أخرى كثيرة.

ثبت نظره عليها وكأنما ينتظر أن يخرج منها ما يغير حياته، لكن ماذا؟ ربما عملاق الثلج «هيرمثرس»[٥٦] كما يسميه الإسكندنافيون. «سنووايت» مثلا تُدخل الدفء إلى قلبه؛ هذا القلب الذي حل به كسوف كامل ودائم، الانتظار احتضار؛ أصعب انتظار ترقب من لا يأتي.

كالعادة لم يحدث شيء، حزن دائم وفرح غائب وقلب مفجوع. صقيع

القلب أشد من صقيع القطب، تمضي حياته بالإيقاع البطيء كفيلم صامت بدون موسيقى تصويرية، بومة الثلج البيضاء تلك هناك أسعد منه، على الأقل لها بيت وعائلة وتعرف المطلوب منها وماذا تريد.

في الصباح جلس الصيادون الثلاثة يتناولون إفطارهم، قال «أساناك» وهو يرشف قهوته:

- لكن كيف وصلت إلى هنا يا «ياكوف»؟
- رد «السيبيري» بفرنسية تشوبها لكنة حادة:
- حقا تريد أن تعرف؟
- لا بأس.
- كنت أعمل بائعًا متجولا في روسيا، أعود إلى البيت عازفًا عن تحريك فمي ولساني لأني أتكلم طول النهار، لم تستطع زوجتي فهم ذلك، كانت امرأة ثرثارة وحمقاء، لم يكن لها نفع على الإطلاق إلا أنها تدفئني في المساء، لقد كانت سمينة وتحتفظ تحت جلدها بعشرة سنتيمترات من الدهون تماما مثل الدببة.
- نظر «عموري» إلى «ياكوف» مقاطعًا:
- ليس من اللائق أن تتحدث عن زوجتك على هذه النحو.
- فعلا ليس من اللائق أن نتحدث عن الموتى بهذا الشكل.
- هل ماتت؟!
- نعم. قتلتها.

opeikanour.com

- قتلتها؟!

- أجل. لم أكن أقصد ذلك؛ تشاجرت معي مساء يوم ومنعتني من النوم فهددتها بسيخ المدفأة، ظننت أن جلدها السميك سيحول دون نفاذ السيخ، لكنه كان ضعيفًا مثل الثلوج الهشة.

- وبعد؟!

- إن ما تراه هو قمة جبل الجليد فقط.

- بمعنى؟

- بمعنى أنها كانت أيضًا امرأة لعوب، تسرق مالي وتضاجع الغرباء، عرفت ذلك لاحقًا فلم أشعر بالندم على قتلها.

- خيم الصمت لبرهة، قطعه «ياكوف» من جديد قائلا:

- هل تريدان أن تعرفا بقية قصتي؟

- رد «أساناك»:

- نعم.

- سُجنت في مقاطعة «يامال».

- من حسن حظك أنهم لم يشنقوك.

- اعتبرته المحكمة قتلا خطأ، لو كنت غنيًا لأثبَتُّ أنه انتحار.

- قانون «سكسونيا»؟

- بل قانون روسيا، هل تعتقد أنه يوجد عدل في هذه الحياة؟

تدبر «عموري» في السؤال، مس شغاف قلبه، أحيانا يرسل الشخص

obeikandi.com

الخطأ رسالة صحيحة، أو هكذا اعتقد. نظر إلى «ياكوف» قائلا:

- حسن وبعد؟

- أخذونا عام ١٩٤٩ لشق طريق للسكك الحديدية هناك، كنا نعمل تحت ظروف قاسية ومن يعترض يُقتل في الحال، قررت الهرب غربا، حين سنحت لي الفرصة فعلت ذلك، كدت أهلك في الطريق، عشت على جيف حيوانات الرنة وأفيال البحر، التي تحافظ الثلوج عليها، اصطدت أيضا السمك من تحت الجليد. نجوت.

- علق «أساناك» قائلا:

- تقصد الرب أنجاك؟

- أي إله تقصد؟ ما عبده أجدادك من الهنود الحمر قبل أن يغتصب الأوربيون أراضيكم ويبيدوكم ويستغلوا ثرواتكم ويجلبوا لكم الأمراض؟

- أنا لا أعبد هذه الأشياء، تركت «نونافيك»[٥٧] وأنا بعد صغير، أنا مسيحي أتبع الكنيسة الكاثوليكية.

- أجدادي كانوا يترددون على كنيسة أرثوذكسية.

- إذن فنحن نتحدث عن يسوع.

- لو كان قادرًا على إنقاذي لأنقذ نفسه.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الأديان كلها تبث الهلع والرعب في النفس البشرية،

هل سمعت عن متلازمة أورشليم؟[٥٨]

- لا.

- مجموعة من الهلاوس والأوهام الدينية التي يستسلم لها الضعفاء من البشر الذين ينخدعون بالحماسات الدينية.

- الدين ينظم شئون الحياة.

- أشرقت الشمس وغربت ملايين المرات، اكتمل القمر ونقص آلاف المرات. «الأرض تتقيأ الأشياء ثم تعود فتبلعها.»[٥٩] الحياة يا صديقي نشأت من تلقاء نفسها تمامًا كما تخرج الديدان من الجبن العفن.

- ما هذا الكلام؟!

- أخبرني أنت... لماذا نترك الكون الرحيب لنتعبد في بناية؟! ولماذا نترك كل الكلام لنحصره في كتاب؟! ولماذا نترك هذه الإيقاعات من حولنا ونكتفي ببضع حركات؟!

- والفردوس والعالم الآخر؟

- صمت المقابر لا يعني أن ساكنيها في الفردوس؛ لم يعد أحد من الموتى ليخبرنا الحقيقة.

- بل عاد «لازاريوس» وآخرون.

- من «لازاريوس»؟

- الذي قام من الموتى بأمر الرب يسوع.

- وهل سألته كيف عاين لحظة الموت أو ماذا رأى في العالم الآخر؟
- سألته؟! لقد مات قبل أن أولد.
- لقد قلت إنه عاد.
- مات ثم عاد ثم مات.
- كم أنت ساذج يا صديقي. أنا أرثي لحالك حقًّا.
- وفر رثاءَك لنفسك.
- قاطع «عموري» حديث الرجلين قائلا من باب التلطيف:
- على أية حال كل شخص حر فيما يعتقد.
- تلقف «أساناك» الحوار مضيفًا:
- نعم... كل شخص حر فيما يختار، هل وعيت ذلك يا «ياكوف»؟
- العشوائية هي التي تنظم اختياراتنا، نحن لا نختار مصائرنا وأقدارنا ووالدينا وأسماءَنا وأرزاقنا.
- إذن ماذا نختار أيها الفيلسوف الروسي؟!
- سؤال يهدم نفسه، أنا أقول لك... نختار ألا نختار.

تابع «عموري» حديث الرجلين وفي قلبه شيء منه، «لبسنا ثوب العيش لم نُستشر».[٦٠] تمنى لو استطاع أن يحكي أيضا حكايته، لكن السيد «روشيتو» نصحه ألا يفعل، هو الآن مواطن كندي اكتسب عادات الكنديين وتشرب ثقافتهم.

obeikandl.com

الشخص الوحيد الذي يعرف حكايته هو «مورجان»، عطف عليه في السفينة، يعبُر حياتنا أناس كثيرون، لكن القليل منهم من يضع لمسته ويترك بصمته، إذا لم تمنحك الحياة الفرصة لرد الجميل لمن وقف بجانبك، فقدم المساعدة لمن يحتاجها.

أدرك «عموري» الآن أن عليه كسب نقودٍ كثيرة ليتمكن من زيارة مصر والبحث عن أمه، لكن كيف؟ إنه حتى لا يعرف اسمها بالكامل، «فاطمة محمد إبراهيم»، لكن كم امرأة في مصر تحمل هذا الاسم؟! ربما استطاع أن يعرف أين ذهبت من آل «روشيتو»، لكنه أيضا لا يعلم أين يعيشون في فرنسا؟ يمكنه التوجه إلى السفارة أو القنصلية الفرنسية والسؤال عنهم. حسن. لا بأس. فكرة جيدة.

المهم الآن هو أن يقتل أكبر عدد من الدببة، ما المشكلة في ذلك؟ سلخ جلود آلاف القنادس من قبل، ما أهمية هذه الدببة التي تعيش في مجاهل القطب الشمالي؟! وهذا السيبيري ألم يقتل زوجته التي كانت تدفئه على حد قوله؟

لم يتحرر إذن بعد من احتباس الكراهية بداخله، أصبح يحقد على الأطفال في كنف آبائهم، يكره رائحة العرق، يكره كل ما صُنع من الجلود، زادت القائمة يومًا بعد يوم، نفذ الكره إلى نفسه.

مضى يومان ولم يعثروا على دب واحد، صرخ «أساناك»: «نانوك،[٦١] يا

سيد الدببة! سق إلينا صيدنا؛ لا أريد أن أفقد فتاتي.» تعجب «عموري» من تصرفات «أساناك»، كاثوليكي بطعم وثني، علق «عموري»:

- اصطدنا خمسة ثعالب، لكننا هنا من أجل الدببة.
- أجل يا «عموري». الإخفاء والتمويه على أشده في المتجمد الشمالي.
- بمعنى؟
- أمسك «ياكوف» بخيط الحديث قائلا:
- بمعنى قد يكون أحد هذه الدببة بجوارك ولا تراه.

نظر «عموري» حوله وكأنه يبحث عن دب يقبع بجواره دون أن يراه. أردف «ياكوف»:

- لكي تبرع في الصيد يجب أن تعتمد على سمعك وحركة الجليد.
- حسن.
- أما إذا وجدت نفسك في مواجهة دب فحاول أن تبقى بعيدا عن يده اليسرى لأنه أعسر؛ ورغم ذلك ففرصتك في النجاة معدومة.
- أتدري يا «عموري»؟
- ماذا يا «أساناك»؟
- يقولون إن صيد البطريق في المتجمد الشمالي أسهل من صيد الدببة.
- لكن البطاريق لا تتواجد هنا.

obeikandl.com

- أعرف ذلك، هذه كناية عن صعوبة العثور على الدببة، اختلاط السواد بالبياض في جسم البطريق يجعله مكشوفًا، أما الدببة فهي والثلج سواء.

بعد يومين آخرين ظهرت أول دبة في الأفق، دبة هزيلة يسير في أعقابها ابنها الصغير، لا بد لهذه الدبة أن تأكل وتسمن حتى تبقى على قيد الحياة وتتمكن من إطعام وليدها، لو لم تستطع تدبير الطعام فربما اُضطرت إلى أكله، بضربة قوية من أنفها الطويل المدبب ثقبت الدبة الجليد ثم وقفت دون حراك تنتظر بجوار الفتحة وطال انتظارها.

تبحث الفقمات تحت الجليد عن أية بقعة نور داخل المحيط المظلم أو قل كوة لتطل منها بغية التنفس ثم تعود إلى المياه، أطلت فُقمة من الفتحة فقبضت الدبة عليها في ثوان معدودة، جرَّت الدبة الفُقمة على الجليد الذي خُضِّب باللون الأحمر، في هذه اللحظة وأثناء انهماك الدبة بسحب الفقمة اقترب «ياكوف» متسللا وأطلق عليها النار من بندقيته فأرداها.

اندفع «أساناك» و«عموري» نحو الضحية، لم يهلع الدب الصغير ولم يفر، بل راح يشم أمه ويحثها على النهوض، قفزت الدموع إلى عين «عموري، أبحر بذكرياته فرأى نفسه وهو يدعو أباه للوقوف على قدميه حين سقط من النخلة، وقف بالقرب من الدب الصغير يشاهده وهو يلحس دماء الفقمة من على فم أمه ثم يغطس برأسه محاولا الرضاعة – ربما للمرة الأخيرة - من أثدائها.

حثه «أساناك» على قتل الدب الصغير، صوب «عموري» مسدسه نحو الدب الأبيض الجميل، تردد للحظات، قال له «أساناك» بصوت خافت:

- اضرب. ماذا تنتظر؟
- لا شيء.
- اضرب إذن.

عصر «عموري» زناد المسدس بسبابته، لكن في آخر لحظة رفع فوهة المسدس للأعلى فاندفعت منه بضع طلقات وهو يصيح: «هذه لك»، هرب الدب الصغير، لكنه أخذ يعدو في اتجاه «ياكوف» الذي بعثر أشلاءه بطلقة واحدة جعلته يتطاير على الجليد لمترين أو يزيد.

اقترب «ياكوف» من «عموري» قائلا:

- لو فعلت ذلك ثانية سأقتلك، أفهمه ذلك يا «أساناك». أنت من أحضرته إلى هنا.

كان جادًّا فيما يقول، لقد قتل زوجته من قبل فلن يتورع عن قتل أي شخص آخر. قرر «عموري» العودة بمفرده، بدأ رحلته نحو التحرر من الكراهية فلن يلوث يديه بالدماء من جديد، ودعهما وانصرف بزاد قليل في رحلة محفوفة بالمخاطر، انطلق غير نادم على المال الذي لم يتحصل عليه، أقنع نفسه أن الفقر الحقيقي هو فقر القلوب، لا فقر الجيوب.

سار يجتر ذكرياته الحزينة ويسأل نفسه ويجيب: «لماذا يزيد عبوسنا وصمتنا كلما تقدمت بنا الحياة؟ هل هناك علاقة طردية بينهما؟ لست أدرى.» يقولون إن الصامتين لديهم حلم أو يعانون من هم. تخلَّى عن حلمه وبقي همه.

تمنى لو استبدل ذاكرة الفيل تلك التي لديه بذاكرة السمك، ذاكرة المظلوم والمحروم واليتيم أقوى من ذاكرة الجمل، تمنى أن ينمحي لوح ذاكرته ويتحول إلى ما يشبه هذا الثلج الذي يحيط به، تسابقت الدموع إلى عينيه من جديد، لكن هذه المرة أحس أن قلبه هو الذي يبكي. صحيح... بكاء العين يذبح وبكاء القلب يفضح.

بعض الناس يعيشون، لكنهم لا يحيون، «مُنعم في عذاب، معذب في نعيم» على حد قول «ابن عربي». يضعون المبتدأ وينتظرون الخبر، ويطول انتظارهم، يفتحون قوسًا ثم تفشل الكلمات في غلقه، بعض الناس هم المستثنى بإلا وغير وسوى وخلا وعدا؛ بعض الناس هم المستثنون من الفرح.

دائمًا ما يكون هناك شيء ناقص في حياتنا: أب لفه الردى، أم غائبة، صديق غير موجود، حبيب ضاع في الطريق. تذهب الأشياء ويرحل الأشخاص ولا يبقى لك إلا نفسك. لا يستحقك إلا نفسك.

ما أشبه الحياة بلعبة البازل؛ قطع صغيرة تشكل لوحة كبيرة. صحيح أنه

يتعين عليك أن تنتظر القطع الأخيرة ليكتمل الشكل، لكن بعض العلب تأتي معيبة، بعض العلب تفتقد قطعًا أو تحتوي على قطع مكررة، ومن ثم فمهما فعلت ومهما اجتهدت ستبقى حياتك ناقصة.

obeikandl.com

(٦)

بالرغم من اعتراض أبيها ذهبت «كوبسس» لزيارة جدتها لأمها في باريس دون علمه، لأول مرة تدخل الحجرة التي ترعرعت فيها أمها. وجدت لوحة «كوبسس» في أحد أركانها، كانت هذه اللوحة هي الشيء الوحيد الذي أخذته أمها معها حين غادرت «بورفؤاد»، قالت جدتها عاتبة:

- تدرسين في «السوربون» كل هذه الشهور الطويلة ولا تأتين لزيارتي يا «كوبسس»؟!
- آسفة يا جدتي، كنت أبحث عن عنوان المنزل.
- ماذا قلت؟

تذكرت «كوبسس» أن جدتها تعاني من مشكلة في السمع، لذا أعادت جملتها الأخيرة على مسامعها ثانية، علقت الجدة:

- لماذا تصرخين في أذني، أستطيع سماعك.
- آسفة يا جدتي، لكن ظننت أن لديك مشكلة في السمع. أعتذر.
- كان جدك رجلا مزعجًا؛ تصنعت الصمم الجزئي لأنجو من

ملاحقاته، فعلا قلل طلباته بشكل كبير، الشيء العجيب أنني صدقت فعلا أن لدي مشكلة في السمع! لا عليك. والآن... ماذا كنت تقولين؟

- قلت إنني كنت أبحث عن المنزل.
- ألم يعطك والدك العنوان؟
- والدي لا يعرف أني هنا.
- هل منعك من زيارتنا؟
- ليس بالضبط.
- هل تعرفين يا «كوبسس» أنك ولدت في هذه الغرفة؟
- حقًّا؟
- أجل.
- جدتي.
- نعم يا بنيتي.
- أين دُفِنت أمي؟
- حيث واتتها المنية، في «كوت ديفوار». لم يكن من السهل نقلها.
- هل أنجبت من زوجها الثاني؟

لم ترد العجوز، أخرجت من الخزانة بعض الملابس الصغيرة قائلة:

- هل يمكنك تصديق أن هذه الملابس هي لك حين جئت إلى الدنيا. انظري إلى حرف الـ K. لقد طرزته بنفسي، هذه القطعة

obeikandl.com

عليها اسمك بالكامل.

- من «كوبسس» هذه يا جدتي التي سمتني أمي على اسمها؟
- «كوبسس هانم». كانت ابنة للخديوي إسماعيل بالتبني.
- إسماعيل الذي ارتبط اسمه بقناة السويس؟
- أجل. أحسبك تعلمين أن جدتي كانت وصيفة للإمبراطورة «أوجيني»، وأنها رافقتها في حفل افتتاح قناة السويس؟
- حقًّا؟ لم أعرف ذلك قبل الآن.
- أعلم أن والدك لا يتحدث عن هذه الأشياء.
- دعينا من أبي الآن وأخبريني.
- بماذا؟
- هل كانت الإمبراطورة تحب إسماعيل؟
- ربما. فعل من أجلها الكثير: الأوبرا وسراي الجزيرة وغيرهما. سمعت أنها حنَّت إلى مصر فرحلت إليها عام ١٩٠٥ متنكرة وأقامت في فندق «سافوي» ببورسعيد.
- عجيب!
- فعلا.
- والآن أكملي لي حكاية «كوبسس» يا جدتي؟
- كانت زوجة إسماعيل الثانية، «جانانيار»، تحبها وتقربها.
- هل كانت «كوبسس» مصرية ؟

obeikandl.com

- لا أظن... شركسية أو أرمينية... لا أتذكر.
- وماذا يعني هذا اسمها الغريب؛ لطالما واجهت هذا السؤال.
- أظنه اسم قديم لنهر في «بلغاريا». لست متأكدة.
- حسن وبعد؟
- تزوجت «كوبسس» من أحد البهوات المصريين وأنجبت منه، لكنها تركته هو وأطفالها وسافرت إلى أبيها وأمها بالتبني في «إسطنبول» حيث كان يعيش إسماعيل في منفاه.
- وبعد؟
- لم يكن القدر رحيمًا بها حيث باغتها الموت وهي في الثلاثين من عمرها، دفنت هناك في مقبرة «أشيان»[٦٢] على «البوسفور».

استأذنت «كوبسس» جدتها في أن تأخذ اللوحة، ترددت الجدة في الموافقة ثم أذعنت في النهاية مشترطة على «كوبسس» أن تكرر الزيارة حتى تقابل خالتها وأولادها، وعدتها «كوبسس» بذلك.

خرجت من البيت وهي تفكر في قصة «كوبسس» الغريبة التي سمعتها للتو. شعرت بالخوف والرهبة حين استشعرت وجود تشابه بين قصة «كوبسس هانم» ووالدتها، هل يمكن أن يكون ما سمعته نبوءة لما قد يحدث لها؟ نظرت إلى الصورة، قررت أن تعود بها إلى بيت جدتها. كانت الجدة مازالت على الباب فهمَّت بالنداء عليها.

- «كوبسس»... هل نسيت شيئًا؟

- لا يا جدتي أردت فقط أن... أن...
- ماذا يا «كوبسس»؟
- أن... نعم... تذكرت. لماذا لم تجاوبيني حين سألتك هل أنجبت أمي من زوجها الثاني؟
- نعم يا بنتي لقد أنجبت منه طفلة.
- إذن لدي أخت... لدي أخت. يا له من شعور جميل. وأين هي؟ هل تعيش مع والدها؟ هل يمكنني زيارتها؟
- هلا دخلتِ؟
- لا داع لذلك يا جدتي؛ أنا في عجلة من أمري.
- الحقيقة أختك تعيش في مصحة.
- مصحة!
- نعم... إنها مريضة.
- كيف؟
- سأكتب لك عنوان المصحة، ليست بعيدة عن الحي اللاتيني.
- أي مرض؟

مرة أخرى لم ترد الجدة، عادت تدعي الصمم. ناولتها الورقة. دستها «كوبسس» في جيبها وانطلقت بالصورة غير عابئة باللعنة التي ارتبطت بها، سخرت من تفكيرها وسذاجتها.

obeikandi.com

راحت «كوبسس» تفكر، عوضًا عن ذلك وفي محاولة لطرد هذه الأفكار من رأسها، في لحظات الحياة الجميلة: حين تسير بمفردك في طريق خال وتتذكر الأشخاص الذين تحبهم، حين تُنهي آخر امتحاناتك، حين تستيقظ لتكتشف أن بإمكانك النوم لبضع دقائق أخرى، حين تنظر إلى من تحب لتكتشف أنه ينظر أيضًا إليك، حين تلمس أصابع مولود جديد، حين تستقبل مكالمة هاتفية من صديق قديم.

obeikandl.com

KOPSÉS.

أحست «كوبسس» أنها خُلقت لتحب، بحثت عن حب يهز حياتها. تعرفت على زميل لها بالكلية من «مارسيليا» يسبقها في الدراسة، كانت أمه جزائرية وأبوه فرنسي، بالرغم من انتهاء ثورة الجزائر منذ أعوام إلا أن هذا الشاب، «جابريل»، ظل يرى القهر في عيني أمه، كان والده يسيء معاملتها ويذكرها دائمًا بأفضاله عليها.

أراد «جابريل» أن يقهر فرنسية في المقابل؛ أراد أن ينتقم لأمه. لم يجد من ينفث سمومه فيها سوى المسكينة «كوبسس»، نصب شباكه حولها بشكل محكم، تردد على شقتها غير مرة وخرج معها لتناول الطعام. كان - على النقيض من السيد «روشيتو»- يرى أنه على فرنسا الاهتمام بشئونها الداخلية، وألا تدس أنفها في شئون الدول الأخرى.

دعاها لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في الجنوب، لم يشأ أن يذهب بها إلى بيت أهله في «مرسيليا» فاصطحبها إلى «طولون»، استعار مفتاح شقة لصديق هناك، وضعت «كوبسس» فيه ثقة عمياء وبكت على سذاجتها، آلمها كثيرًا تلك الليلة وسببت لها ساديته أذى جسدي ومعنوي، تفنن في تعذيبها وإذلالها.

أغلق الباب بالمفتاح، كمَّم فاها، خلع عنها ملابسها بالكامل. أوقفها وظهرها للحائط في تمثيل للوحة «دافينشي» الشهيرة «الرجل الفيتروفي»، عقد خصلات شعرها ووضع فيها العلكة! شدها بعنف من قرطيها! سبَّها

بأقذع الألفاظ، ثنى أصابعها بقسوة، قطَّر الماء البارد في أذنيها! نتف شعيرات من أنفها وحاجبيها! مرَّر مسمارًا على لوح من الزجاج بالقرب منها محدثًا صوتًا لا يطاق! وضع السجائر المشتعلة بين أصابع قدميها! ثبَّت مشابك الغسيل في حلمتيها، وضع قضيبه في حنجرتها حتى كادت أن تختنق!

عادت «كوبسس» من «طولون» بنفسية محطمة، أحست أن أعين زملائها في الكلية تلاحقها، لابد وأن هذا الفتى المريض أسرَّ لهم بشيء أو هكذا ارتابت. يسمع الجميع صوت سقوط شجرة، لكن لا يلتفتون لنمو غابة بأكملها، عافت نفسها مجرد النظر إلى «جابريل»، قررت أن تقطع علاقتها به.

أخذ «جابريل» خطوة استباقية، لم يشأ أن يجعلها تشعر بالنصر والكبرياء ولو في موقف واحد، تركها بعد ثلاث سنوات من الحياة معًا إلى أحضان فتاة غبية لكنها غنية، وذهب ليعيش معها بعد تخرجه في قصر والدها ببلجيكا.

جلست «كوبسس» في شقتها أو قل مرسمها وقد اعتصر الحزن قلبها؛ لماذا لا تستطيع التعامل مع الناس هنا في «باريس»؟ كل الذين عرفتهم عبثوا بها وانتهكوا شفافيتها: «ماتيلدا» و»جابريل» وآخرون. ضحوا بها، لكنهم لم يضحوا بالقليل من أجلها، لوثوا نقاءها ولطخوا براءتها. صدق

«تشيكوف» حين قال: «كلما زاد نقاء الشخص زادت تعاسته»، لكنها أيضًا ساهمت في ذلك؛ استنزفت نفسها قبل أن يستنزفها الآخرون، أعطتهم بسلبيتها وترددها وصفة للخنوع، تشعر الآن أنها حقًّا منهكة وجد مُتعبة.

فجأة وجدت وريقة ملقاة على الأرض خلف مقعد «الشيزلونج»، اتجهت نحوها مباشرة والتقطتها، كانت تحوي عنوان المصحة حيث تعيش أختها «سابيلا».

انطلقت في الصباح إلى المصحة، شعرت بالرغبة في زيارة أختها، تأخرت كثيرًا، دُهشت حين علمت أنها دار رعاية. أنهت الإجراءات المطلوبة للزيارة، بعد أقل من ربع ساعة كانت تجلس أمام أختها.

كانت «سابيلا» مصابة بالعته المغولي أو مرض «داون» إن شئت، لم تستطع «كوبسس» تمالك نفسها، بكت كما لم تبك من قبل. أخذت «سابيلا» تربت على كتفها، لم تنطقا ببنت شفة.

تكررت زيارتها لـ «سابيلا»، ابتاعت لها عروسة جميلة، أخذت «سابيلا» تعبث بحقيبة أختها، بعثرت أغراضها، وجدت أحمر شفاه. لطخت به العروسة، كل هذا و»كوبسس» لا تحرك ساكنًا.

خلال زيارتها الأخيرة أخذتها «كوبسس» في أحضانها. أحضرت لها بعض الشيكولاته بالبندق، استمتعت «سابيلا» بطعمها. أمسكت «كوبسس» بيدها، لديهما نفس الأصابع، أصابع أمهما، لاحظت

«سابيلا» أيضًا هذا التشابه، ربما أدركت أن «كوبسس» جزء من عائلتها. ربما... من يدري؟

obeikandl.com

obeikandl.com

(٧)

كاد «عموري» أن يهلك في المحيط المتجمد الشمالي، نفد الطعام معه، ولم يستطع التقدم أكثر من ذلك، جلس مكانه واستسلم لقدره، توهم أنه غير موجود، أو أن دماءه تجمدت أو أنه فقد أجهزته الداخلية أو أنه في بيات شتوي.[٦٣]

شعر برغبة في التبول. ليس هذا وقته بالمرة، يكره التبول بشكل عام لأنه يبقيه مشلولا غير قادر على الحركة، يكره أكثر حين يقطع عليه حلمًا جميلاً يفشل في استكماله؛ يتحتم عليه أن ينتظر حتى تفرغ مثانته المنتفخة. دائمًا ما يصاب برعشة في نهاية عملية التبول، على أي حال يستمتع هنا في القطب بنزول بوله الساخن فوق الجليد وهذه الحفرة التي يحدثها. ما هذه الأشياء المقرفة التي يفكر فيها؟!

فجأة ظهرت أمامه امرأة جمالها خرافي في ثياب بيضاء، مدت له يدها فاندفع نحوها، لكنه لم يصل إليها. هل هذا سراب الجليد؟! أم أن هذه المرأة هي «يوكي أومن»[٦٤] التي تظهر حين تنزل الثلوج في اليابان؟

لمح «عموري» في الأفق بناية صغيرة، يبدو أن المرأة أرادت أن تلفت

أنظاره إلى هذه المنشأة، انطلق نحوها عدوًا فلم يجد فيها أحدًا. ارتفع هوائي قوي فوق «الكارافان» فاستنتج أنه ربما كان مرصدًا للزلازل أو متابعة المناخ، قرر أن يأخذ قسطًا من النوم بجوار «الكارافان» فراح في سبات عميق استيقظ منه على صوت أجش لرجل لا يظهر منه سوى عينيه، انتصب «عموري» على قدميه قائلا:

- هل تتحدث الفرنسية؟
- نعم. كيف حالك؟
- كما ترى!
- من أين قدمت؟
- من... من... لا أعرف.
- حسن. تفضل بالدخول.

دلف الرجلان في «الكارافان»، أضاء صاحب المكان مصباحًا ثم أشعل أقراص الوقود الجاف وجهز قدحين من الشاي.

- أنا «روبرت» من ولاية «مينوستا» الأمريكية.
- فرصة سعيدة. أنا «عموري» من «مونتريال».
- ماذا تفعل في القطب؟
- الحقيقة...
- قل ولا تخف.

opeikanal.com

- كنت مع جماعة تصطاد الدببة، لكني أدركت أن هذا العمل ليس صوابًا فتركتهم ورحلت.
- أتعلم حين زرت «الدنمارك» دعاني صديق هناك لمشاهدة ما يُطلق عليه «مذبحة الدلافين».
- مذبحة الدلافين؟!
- أجل يحاصر «الدنماركيون» الدلافين ويدفعونها نحو الشاطئ ثم يقتلونها.
- أوَيفعلون ذلك؟
- أجل، لكن بالرغم من قسوة هذا الأمر، إلا أنهم يتناولون لحومها ويستفيدون من كل جزء فيها، أمَّا الدببة...
- الفراء وحسب.
- هو ذاك.
- حسبتك ستحدثني عن التوازن البيئي.
- لم أشأ أن يكون حديثي مملا، لكن الإنسان بلا شك هو المسئول الأول عن الخلل البيئي، وبات عليه أن يرفع يده عن الكائنات الحية لأنه يسبب لها الألم بحماقاته. هل تعلم أنه في بلدة «فيربانكس»[٦٥] بولاية «ألاسكا» يُحرم على الوعول ممارسة الجنس في الطريق العام!
- مزحة تلك؟!
- لا... مجرد مثال لهذه الحماقات. هل تريد بعض البسكويت

obeikandl.com

مع الشاي؟

- لا بأس.

انشغل «روبرت» لدقائق في متابعة الأجهزة داخل «الكارافان» وتسجيل قراءتها. استأنف حديثه قائلا:

- يومًا ما ربما بعد خمسين أو مائة عام سيذوب كل هذا الجليد.

- كيف؟

- بسبب الارتفاع التدريجي لدرجات الحرارة؛ رصدت الأجهزة ربع درجة زائدة عن قراءة نفس اليوم من العام المنصرم. راجعت أرقامي مع السويديين.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني فتح الطريق الشمالي من الأطلسي للهادي بحيث لا تحتاج الدول الشمالية الدوران آلاف الأميال عبر قناة السويس، هل سمعت عنها؟

رنت العبارة الأخيرة في أذني «عموري». قال «هل سمعت عن قناة السويس؟»، سرح «عموري» بخياله ولسان حاله يقول: «نعم أيها البروفيسير أعرفها جيدًا، أكثر مما تتخيل». استطرد «روبرت» مضيفًا:

- يمكنك التحكم في الحالة الصلبة للمياه، لكن في الحالة السائلة تفقد السيطرة عليها. ستغرق جزر وأماكن عديدة من العالم. تخيل أربعة عشر مليون كيلو متر مربع من الجليد حين تذوب!

- ألا يوجد حل؟
- الحل الوحيد هو التوقف عن التنقيب عن البترول في بحر الشمال.
- فقط؟
- وملأ المنخفضات بماء البحر: وادي الموت في «كاليفورنيا» ومنخفض القطارة وغيرهما.
- وهل أنت هنا من أجل مراقبة الجليد وحسب؟
- نعم. أوقفت حياتي على هذه المهمة.
- منذ متى وأنت هنا؟
- سبع سنوات.
- فترة طويلة وحياة قاسية.
- عندما تقتنع بما تفعله يهون عليك كل شيء. الإجابات الجاهزة السهلة لا تريح عقول العلماء، لابد أن تبحث وتدحض وتفند. حين كنا في المدرسة الثانوية ومع بداية تطبيق نظام الاختبار متعدد الاختيارات كان الطلاب يختارون الإجابة © حين يقعون في الحيرة. لا بأس أيضًا لو جاءت جميع اختياراتك ©لأنه من المؤكد أنك ستصيب جزءًا من الإجابات الصحيحة اللهم إذا كنت عاثر الحظ. مشكلتنا الحقيقية يا «عموري» هي تلك الإجابة ©. هذه الإجابة عطلت عقولنا وأوقفتنا عن البحث والتدقيق.

obeikandl.com

- فهمت قصدك.
- هل تعلم أن الأدميرال «بيري»[٦٦] الذي وصل إلى هنا راكبًا زلاجة تجرها الكلاب فقد ثمانية من أصابع قدميه ؟
- فقدها؟!
- أجل.
- متى كان ذلك؟
- عام ١٩٠٩، لكنه صمد ونجح.
- نعم.
- يجب أن يكون لدينا هدف نبيل نسعى إليه، لا يمكن أن تقوم حياتنا على قتل حيوانات بريئة.
- فهمت ما ترمي إليه.
- البرد يا «عموري» غير موجود؛ إنه يظهر فقط حين تختفي الحرارة. والظلام غير حقيقي؛ ينزل فقط عندما يرحل الضوء. والشر ليس له أساس؛ يسيطر فقط عندما ينزوي الخير.
- فهمت.
- قلبت دماغك بهذا الكلام. أُعذرني؛ أظل صامتًا بالشهور. أردت فقط أن أمرن عضلات فكي.
- بل أردت أن تبعث برسالة، وقد وصلت. أنا ممتن لمقابلتك.
- ذكرتني بالرسائل. يتعين عليّ أن أبعث بواحدة عبر اللاسلكي.

obeikandl.com

فتح «روبرت: جهاز اللاسلكي ثم قام بإرسال بعض البيانات إلى المركز الرئيسي. التفت إلى «عموري» قائلا:

- يمكنك المكوث هنا ريثما تستعيد عافيتك. يمكنني أيضًا أن أزودك ببعض الأطعمة.
- كيف يصلك الطعام هنا؟
- تلقي به الطائرة على فترات.
- حقًّا؟! هل تسمح لي بسؤال شخصي؟
- بكل تأكيد.
- تقول إنك هنا منذ سبع سنوات؟
- أجل.
- أليس لك أسرة، شريكة، أطفال؟!
- بلى. أذهب لزيارتهم كل ثلاثة شهور.
- وهل أربع زيارات في السنة كافية؟
- في ظروفي نعم. امرأتي سيدة عاقلة ومحترمة والأهم أنها تُحبني وتفهم ما أفعله، لن تصدق لو قلت لك إن جل القرارات المهمة في حياتنا أتخذها أثناء الشهرين الَّذين أقضيهما في «مينسوتا».
- حقًّا؟!
- ليس المهم أن تكون بعيدا؛ المهم أن تكون مؤثرا. انظر إلى أصابع يدك.

obeikandl.com

- خلع «روبرت» قفازه ثم أردف:
- أربعة متلاصقة وإبهام بعيد.
- صحيح.
- لكنك لا تستطيع أن تنجز شيئًا بدونه.
- فعلا.
- ألم أقل لك؟
- بلى.

أخرج «روبرت» صورة من جيبه لزوجته وأطفاله ودفعها لـ «عموري».

- هذه هي عائلتي.
- صورة جميلة.
- أخذتها لهم بنفسي.
- حقا؟
- أجل... والآن أخبرني؟ هل لك زوجة وأطفال؟
- ليس بعد.
- حين تخرج من هنا ابحث عن امرأة؛ ليس هناك أجمل من أن تتقاسم الحياة مع أنثى، الحياة بكل تفاصيلها، حلوها ومرها، حتى الأشياء البسيطة التي نفعلها كل يوم تُصبح مختلفة مع شريكة. حتى الشجار له طعم مختلف سواء تشاجرتما حول مصروفات البيت أو من يستأثر بالوسادة الإضافية على السرير ليضعها بين فخذيه.

obeikandl.com

مست هذه الكلمات شغاف قلب «عموري». لم يسع مطلقا للاقتراب من أي امرأة، يعرف أن لديه مشكلة صحية، لكنه لم يحاول. ربما يجدر به إذا عاد لـ «مونتريال» أن يجرب نفسه مع امرأة. جاءه صوت «روبرت» من جديد:

- والآن... هل تريد أن تستمع للإذاعة؟
- كيف؟!
- يمكنني التقاط بعض الترددات على جهاز اللاسلكي. هذا الأمر يُسري عنِّي كثيرًا.
- حسن. لا بأس.

شرع «روبرت» في تحريك مؤشر الترددات. صدر عن الجهاز ضوضاء جمة وأصوات متداخلة قبل أن يستقر عند محطة نقية صدحت منها «أودري هيبورن» بأغنيتها الجميلة «أليس هذا شيئا رائعا؟»[٦٧] لم يفهم «عموري» كثيرًا من كلمات الأغنية لأنها بالإنجليزية، لكنه شعر بها. أطرق الرجلان السمع. غارت عيونهما فكأنما سافرت عبر الأميال إلى حيث يعيش الأحبة الذين تعين عليهما تركهم.

«كل ما أريد هو غرفة في مكان ما

بمنأى عن رياح الليالي الباردة

غرفة بها مقعد كبير

obeikandl.com

أليس هذا شيئا رائعا؟

قطعة كبيرة من الشيكولاته لأجلي

فحم وفير يصنع طعامًا كافيًا.

وجه دافئ وقدمان ويدان دافئتان.

أليس هذا شيئا رائعا؟»

بلى... بلى... بلى.

obeikandl.com

(٨)

عادت «كوبسس» بعد تخرجها إلى «جرونوبل» وقد خسرت بكارتها وقلبها. لم تكن المشكلة بالنسبة لها فقدان بكارتها بقدر ما كانت فقدان عذريتها العاطفية، عادت لتجد أباها قد أصيب بالفشل الكلوي. رحل الرجل بعد أقل من شهر من عودتها، لم تستطع فعل الكثير له اللهم إلا زيارته في المستشفى والجلوس بجواره وهي تقبض على كف يده وتنتحب. قبيل موته نظر السيد «روشيتو» إلى ابنته قائلا:

- هل تعلمين يا «كوبسس» أن جدي الأكبر كان في جيش نابليون إلى مصر؟
- حقًّا يا أبي؟! حارب الإنجليز إذن في «أبي قير»؟
- لا بل كان مع علماء الحملة الذين درسوا مشروع القناة. للأسف وقعوا في خطأ تقدير مناسيب البحرين الأحمر والمتوسط.
- أما زلت تفكر في مصر يا أبي؟
- لم تغب لحظة واحدة عن بالي يا «كوبسس»، لكني حزين على حالها.
- تقصد حال القناة؟

- أجل.
- يؤلمك أنها مغلقة. أعلم ذلك.
- ما آلمني أكثر يا كوبسس هو تحطيم تمثال «ديليسبس».
- لم يحطموه يا أبي؛ أنزلوه فقط من على قاعدته.
- حقًّا؟
- أجل يا أبي. يومًا ما سينتصب هذا التمثال من جديد. أنا واثقة من ذلك.

نظر السيد»روشيتو» عبر الغرفة، وربما عبر المستقبل وكأنه يرى تمثال «ديليسبس» وقد ارتفع ثانية. عاد من رحلته ليقول:

- كنت أتمنى أن تفتخري بي يا «كوبسس».
- لماذا تقول ذلك يا أبي؟! أنت موضع فخري دون شك، ومثلي الأعلى أيضًا.
- لكنك متغيرة يا «كوبسس». ما بك؟
- لا شيء يا أبي.
- قصة حب فاشلة؟
- ما الذي يجعلك تقول ذلك؟
- إحساس. اسمعي يا حبيبتي. الحب لا يُستجدى. لا يستحق البكاء من لا يريد أن يحتفظ بحبك، الحياة لا تقف عند إنسان لا يستحق المشاعر.

obeikandl.com

- ألهذا السبب تركت أمي؟
- هي من تركتنا ورحلت.
- لكنك لم تحاول استرجاعها.
- سامحها الرب. لم أشعر معها بالسعادة، لم تشاركني أحلامي وطموحاتي، لم تهتم إلا بأزيائها وعطورها الباريسية، لكنك مختلفة يا «كوبسس»، لقد جاهدت كي أجعلك مختلفة.
- نعم. أخبرني يا أبي؟
- بماذا؟
- كيف قابلت أمي؟
- قدمت مع عائلتها للتزحلق في «الألب»، كنت أعمل هناك، أبناء العاصمة لا يجيدون التزحلق، جرفتها الثلوج، كادت أن تموت لكني أمسكت بها.
- ثم؟
- ثم تقدمت لخطبتها، رفض جدك في البداية، لكن أمك أصرت. أرادت أن تجرب شيئًا جديدًا؛ كان الموضوع بالنسبة لها مجرد مغامرة.
- قصة جميلة.
- ماذا عن قصتك أنت؟
- لا أعرف ماذا أقول لك يا أبي، لكن يبدو أن نشأتي المختلفة تلك

هي سبب مشاكلي الآن.

- اسمعي يا بنتي. الرئة تنظف نفسها بنفسها، لكن القلب لا يستطيع أن يفعل ذلك، احتفظي بقلبك نظيفًا ونقيًّا وطاهرًا. احتفظي به لشخص يعرف قيمته.
- أفعل يا أبي.

بعد أقل من شهر على عودتها من باريس كانت «كوبسس» تعيش بمفردها في هذا البيت الجبلي البارد الكبير، مرت بحالة متفاقمة من الاكتئاب، عاشت على المهدئات، تستدرج النوم، لكنه لا يطاوعها. نفس مشوهة وروح مصلوبة وجسم مهزوم. هذه هي «كوبسس».

ما إن تُنهي ساعات عملها كمدرسة للرسم في إحدى مدارس المدينة حتى تعود مهرولة للبيت لترسم وتشاهد التلفاز. لم تعد تخرج من المنزل في عطلة نهاية الأسبوع.

أصيبت على الأرجح بأعراض «ديوجين»،[٦٨] ذاك الفيلسوف اليوناني الذي كان يعيش متقوقعًا داخل برميل نبيذ خال. شعرت أنها محنطة في تابوت الحزن تخوض غمار ليل طويل كالأبد. تسربت الأيام من بين أصابعها وجدب قلبها وتصحَّرت مشاعرها. تقوقعت بشكل عجيب وأهملت في نفسها، أسدلت ملاءة على مرآة غرفة النوم؛ كرهت حتى الاستحمام حتى لا ترى جسمها.

احتاجت «كوبسس» لزوج من الأحذية فتوجهت إلى أحد المحلات المشهورة في البلدة، تعجبت حين وجدت على أحد جدران المحل صورة كبيرة لـ «لإسكندر الأكبر» وهو يقبل قدم زوجته الفارسية «ألكسانا». ساعدها صاحب المحل على انتقاء حذائها وقياسه، أمسك بقدميها البضين المتناسقين. شعرت أنه يقترب منهما بأنفه بشكل غريب وكأنما يشمهما أو ما شابه، اضطربت وابتاعت الحذاء وانصرفت على عجل. ما لم تكن تعلمه أن صاحب المحل سار وراءها حتى عرف أين تعيش.

ظل يلاحقها هنا وهناك حتى قبلت دعوته على العشاء، توطدت العلاقة بينهما، لكنها رفضت أن تسلمه نفسها كما فعلت مع «جابريل». بعد مرور فترة على معرفتهما طلب منها الزواج. وجدت فيه كل ما تنشده المرأة: جريء ومرح ولديه محل يدر عليه دخلا جيدًا. قبلت الزواج منه، بعد عام من لقائهما كانت في بيته ترتدي فستان الزفاف.

يقولون إن الزواج مثل البطيخة، وهو فعلا كذلك. بدأ وجه «رولان» يتكشف على حقيقته؛ تبين أنه مصاب بالهوس الجنسي. والهوس الجنسي لمن لا يعلم يختلف عن الولع الجنسي أو الشبق؛ الولع الجنسي هو كثرة المعاشرة، أما الهوس الجنسي فهو الإتيان بأمور غريبة أو «فيتيشية»[٦٩] كما يطلقون عليه.

شعاره «ألذ الجماع أفحشه». كان الغرام بالأقدام ولعقها ولحسها أو ما

يُسمى إجمالا بـ «بودوفيليا»[٧٠] هو أقل ما لديه من هوس، مع مرور الوقت بدأ يُقنع «كوبسس» بأشياء غريبة، بالرغم من أنه يهزأ أحيانا من لوحاتها، إلا أنه أدخل في روعها أن على الفنان أن يكون غريبًا حتى يُبدع! ضرب لها أمثلة من التاريخ لمشاهير غير أسوياء، العجيب أنه أدرج نفسه مع الفنانين فمن وجهة نظره تصميم الأحذية فن كبير. كانت لديه قدرة كبيرة على الإقناع، أو قل إن «كوبسس» كانت ضعيفة أمامه لأنها خشيت من تكرار الفشل.

ليتها انتبهت إلى هذا الأمر قبل الزواج، لكن «رولان» بدا طبيعيًّا جدًّا. لا تتذكر أنه أشار إلى المضاجعة أو الأمور الجنسية في حديثه مطلقا؛ ربما في مناسبة واحدة كانا يحتفلان بعيد ميلادها وكان يقوم بنفخ البالونات، ربط بالونًا ثم نظر إلى العقدة قائلا إنها تشبه فتحة الشرج. لم يكن من اللائق قول ذلك، لكن «كوبسس» اعتبرتها زلة لسان. ليتها أدركت أن زلة اللسان قد تكشف الإنسان.

آه... تذكرت «كوبسس» الآن مناسبة أخرى كشفت عن تفكيره المعوج، حكى لها ذات مساء عن امرأة لا تصل إلى النشوة إلا إذا علمت أن هناك من يتفرج عليها أثناء معاشرة زوجها لها. خصصت هذه المرأة مكانًا للمشاهدة واعتادت دعوة صديقاتها لهذا الغرض.

بعد أقل من سنة فقط من زواجهما أخبر «رولان» زوجته أنه يشعر

بالسأم من العلاقة، وأنه يريد بعض التغيير والتجديد في حياتهما.

- «كوبسس» لقد سأمت من وضع الإرساليات هذا **Position du missionnaire**.
- ماذا تقصد بوضع الإرساليات؟!
- الوضع التقليدي لممارسة الجنس، وضع المتحفظين في علاقاتهم، الوضع الذي علمه المبشرون لسكان العالم الجديد حين أرادت الكنيسة الكاثوليكية أن تدس أنفها حتى في حياة الناس الخاصة.
- ظننت أنه من اللائق أن ينظر الرجل إلى وجه امرأته وهو يعاشرها.
- أحب التبديل يا «كوبسس». لا يمكن أن نكتفي بطعم «الفانيليا» فقط **La sexualite vanilla** حتى لا نُصاب بالرتابة.
- قل لي ماذا تريد ودعني أحاول.

اقترحت عليه «كوبسس» السفر إلى أي منطقة داخل أو خارج فرنسا، عرض هو في المقابل دعوة بعض الأصدقاء والصديقات فيما يُسمى بـ «الأورجي»،[٧١] وهو - على حد قوله - تقليد كان يقوم به آلهة اليونان فيشربون ويأكلون ويرقصون.

أخبرها أن ما ستعاينه في هذه الحفلة سيؤجج الطاقة الفنية الإبداعية لديها، وافقت «كوبسس» تحت ضغط وإلحاح من باب التجربة وخوفًا من أن تفقد العلاقة للأبد. ما لم تكن تعرفه أن ما تخشى فقده تفقده

بالفعل.

بدأ الحفل بطقوس عجيبة حيث قام الرجال بغسل أقدام النساء وتقبيلها كما لو كانوا قساوسة كاثوليكيين في الخميس المقدس، أسلمت قدميها لصديق لهما بالغ في غسل قدميها وتقبيلهما الأمر الذي جعلها تقف فجأة وتبتعد عنه.

تبين أن «الأورجي» ليست حفلة للأكل والشرب والرقص وحسب، كانت هذه أول مرة تسمع وتشاهد فيها «كوبسس» أشياء مثل جلوس النساء بمؤخرتهن على وجوه الرجال والمعاشرة الثلاثيةMénage à trios والولوج المزدوج Double penetration. رفضت فعل ذلك واحتقرته واحتقرت نفسها، سقطت ورقة التوت. كان أفظع ما شاهدت في هذه المسخرة هو حين قذف كل الرجال المجتمعين وعددهم خمسة خلا زوجها بمنيهم على فتاة سمراء، يسمون هذا الفعل الشائن «بوكاكي».[٧٢]

تعود أصول «البوكاكي» إلى اليابان حيث كانت تُجرد المرأة الخائنة من ملابسها بالكامل وسط البلدة ثم يقذف الرجال منيهم فوقها تعبيرا عن الاشمئزاز والقرف. لقد كان منظر الفتاة السمراء وعلى وجهها وشعرها كل هذا السائل مثيرًا للامتعاض، خاصة بعد أن بدأ يفقد لزوجته. الأسوأ من ذلك هو ضحك الرجال الهستيري وتعليق زوجها: «السلاح المنوي أقوى من السلاح النووي».

استقر في وعي «كوبسس» وضميرها أن كل الرجال يسببون الغثيان، ربما عدا والدها وحسب. لقد كان شيئا آخر. فارس بمعنى الكلمة. أين هذا من عاشق الأقدام؟ ما أحقره حين يمارس العادة السرية وهي بجواره على السرير! لا يستحق الأخير مجرد دمعة، لا أمل في إصلاح حاله. حاولت معه كثيرًا دون جدوى. لا يمكن أن تفعل المستحيل لرجل لم يفعل من أجلها الممكن.

يبدو أن «ماتيلدا» كانت على حق. الرجال والقذارة والحقارة ألفاظ مترادفة، الرجال ضفادع لزجة أو ظربان نتنة، عقولهم مريضة. كلامهم قبيح. يلعبون في أعضائهم الذكورية. يفكرون بنصفهم السفلي.. خل بين رجل وامرأة وانظر كيف سيتصرف معها؟

لقد فعلت ذلك «مارينا ابراموفيك»[٧٣] حين قررت عام ١٩٧٤ أن تقف بلا حراك لمدة ست ساعات سامحة للرجال بأن يفعلوا بها ما يريدون. في البداية فقدت المرأة ملابسها، البعض تحرش بها والبعض مارس ساديته معها، هل تصدق أن رجلا حاول وضع رقبة زجاجة في... في... !هؤلاء هم الرجال. مخلوقات مقرفة مثيرة للاشمئزاز؟

في صباح اليوم التالي كانت «كوبسس» وأغراضها في السيارة. عادت إلى بيتها على سفح «الألب» مرة أخرى، جرح جديد، لكنه هذه المرة أشد قسوة، نالت حريتها بالطلاق، لكنها ظلت حبيسة معاناتها وألمها

وفشلها المتكرر والمستمر.

انكبت على الطعام فنمت أفقيًّا وزاد وزنها بشكل لافت. لم تتصالح مع جسمها، كرهته لأنه لم يستطع أن يُنشِئ علاقة سوية مع زوجها. ملامحها جميلة، لكن جسمها يفتقد للتعاريج والجغرافية. هل هي مسئولة عن «فيتشية» زوجها وغرابته وهوسه الجنسي؟ لا بالطبع. لا بالطبع... قبح القلوب أسوء من قبح الأجسام.

تمنت «كوبسس» لو تحولت إلى امرأة كاملة الفتنة، تمنت لو خلعت نظارتها السميكة وغيرت ذيل الحصان في شعرها. تمنت لو رققت حاجبيها واستبدلت الملابس التقليدية تلك التي ترتديها إلى ملابس أكثر فتنة، تمنت لو اختفت تلك الهالات تحت عينيها وهذه العروق الزرقاء من يديها وفخذيها ونهديها، تمنت لو عرفت مواطن الفتنة وأخرجت الأنثى داخلها، تمنت لو عرفت كيف تمتص الذكورة، تمنت أن تخلع ملابسها دون تحرج، تمنت أن تدغدغ أعصاب الرجال وتضغط على ذر الشبق لديهم؛ أمنيات مشروعة.

جربت حمية غذائية، لكنها ألقت في اليوم الثالث بسلطة الكرنب في القمامة. الحوت يأكل السمك وحسب لكن وزنه هائل! الأرنب يأكل الخضراوات، لكنه يعيش خمس سنوات فقط! السلحفاة لا تتحرك وتعيش دهرًا! الأيسر أن تحب جسمها وتتقبله وتتصالح معه، الأفضل أن

تجد من يقبل بها على حالها، الأجمل أن تجد من يحبها لذاتها وشخصيتها.

أخيرًا وضعت همَّها في الرسم. يقول فولتير: «الحب لوحة رسم». ترسم «كوبسس» للحب بصفة أساسية. لم تكفر به بعد، إنها متأكدة من وجوده، لكن أين هو؟

بدأت «كوبسس» بالمستنسخات. رسمت مستنسخًا للوحة «القبلة»[٧٤] للرسام النمساوي «جوستاف كليمت»[٧٥] ومستنسخًا آخر للوحة «العناق» لبيكاسو.[٧٦] رسمت أيضًا صورةً لوالدها. يوم أن انتهت منها وضعتها على السرير ونامت بجانبه.

بعد هذه المرحلة بدأت ترسم لوحاتها الخاصة بها، رسمت صورة لقطتين تتعانقان، صورة لقرد يعانق طفلا، صورة لجندي أثناء الحرب العالمية الثانية طلَّ من نافذة القطار ليقبل فتاته حتى أنه رفعها من على الأرض ليعانقها، رأت هذا المشهد في السينما فانطبع في وجدانها.

لكنها رسمت أيضًا صورًا مفجعةً عكست ما مرت به من تجارب سيئة. كان منها «لفة الموت» حين يلف التمساح فريسته في الماء. لم يفتها بالطبع أن ترسم معدية «بورفؤاد».

قررت أن تبحث عن نفسها، عزمت على التقدم بأجازة من المدرسة حتى تتفرغ للرسم، ربما استطاعت في يوم من الأيام عمل معرض للوحاتها.

قررت أيضًا أن تسافر لتجدد خيالها ورسوماتها. نظرت إلى صورة

«كوبسس» المعلقة في المنزل. تذكرت أمها وطلاقها من أبيها وتذكرت طلاقها هي؟! ليتها أعادت الصورة إلى جدتها، هل ربط القدر بينهما وبين «كوبسس» تلك؟ قررت أن تكون تركيا أولى محطاتها في السفر علها تزور قبر «كوبسس هانم» وتقترب من المرأة التي حملت اسمها لسنين.

obeikandl.com

(٩)

عاد «عموري» سالمًا بمعجزة من القطب الشمالي إلى «مونتريال»، كُتبت له حياة جديدة. على أية حال كانت هذه المغامرة مفيدة، ربما لم يبرأ تمامًا من آلامه، لكنه وضع يده على الجرح. نكأه لينظفه ويُخرج منه الصديد والمرارة ثم يعيد تضميده.

وجد إعلانًا عن طلب أفراد للعمل في مهنة تكسير الثلوج. تقدم للجهة المُعلِنة ونال الوظيفة. ينطلق كل يوم إلى مقر الشركة التي ترسله إلى منطقة معينة. الأماكن تتباين حسب سقوط الثلوج، والأوقات أيضًا تتفاوت.

كانت مهمته معالجة الثلوج التي تتكون على الممرات الجانبية للبيوت والتي تعجز الكسارات عن الوصول إليها. كل ما عليه هو رش الملح على هذه الممرات حتى لا تتكوم عليها الثلوج فمعروف أن الملح يحول دون تكونها، ولا بأس أيضًا بتكسير بعض منها وإزاحتها من الممرات إذا اقتضت الحاجة ذلك.

في يوم من الأيام تم دفع «عموري» إلى مربع سكني في حي فاخر من

أحياء «مونتريال»، باشر مهامه على الفور. لا شك أنه عمل صعب، في أحيان كثيرة لا يتواجد في الشارع غيره. يتوقف على فترات ليشعل سيجارة وينفث بدخانها في الهواء وينعي مع تلك الغلالة حاله على نحو يستدعي الدكتور «زيفاجو» وهو يزيح الثلوج من قضبان القطار أو بالأحرى قضبان حياته.

نظر «عموري» إلى البيوت المضاءة والخيالات التي تتراقص وراء ستائرها الخفيفة. شد انتباه بشكل خاص رجل يعانق زوجته أو رفيقته ويقبلها، أخذها الرجل من يدها وتوجه بها للداخل.

تنهد «عموري» تنهيدة أخرج فيها حسرة السنين ولهفة الجسد المريض، تاق إلى امرأة واشتاق إلى هذا الشيء الذي يتم بين الرجال والإناث. تلهف لامرأة، تلك اللهفة التي جعلت «إيساف» يلتحم بـ «نائلة» في حجر الكعبة.

طلبت منه امرأة أطلت من شرفة تكدست عليها الثلوج مساعدتها في تشغيل المدفأة. ما إن ولج «عموري» في المنزل حتى أحس بدفء البيوت ورائحة النساء. كانت المرأة في هذا البيت الواسع بمفردها، لم تكن فائقة الجمال، لكن جسمها مكتنز باللحم وملابسها مغرية. أبى ثدياها السكون فدأبا على الخروج من بلوزتها مع كل حركة وانحناءة. لو رأى «نيوتن» هذين النهدين النافرين لراجع قوانين الحركة برمتها.

دعته لغسل يديه، اقتربت منه بشكل لافت، انهارت أعصابه. تبادلا الإشارات المطلوبة، أخذ حمامًا ساخنًا، ناولته المرأة عطرًا ومزيلًا للعرق، أخذهما منها وهو يضحك من المفارقة، أراد أن يقول لها إنه لا يعرق، أراد أن يقول لها إن مشكلة حياته أنه لا يعرق.

- ما الذي يثير ضحكك؟!
- لا شيء. فقط تذكرت أمرًا له علاقة بمزيل العرق.
- هذا نوع جيد من المصنع الذي أمتلكه.
- حقًّا؟
- أجل... سأهديك دستة كاملة منه.
- شكرا لك.

دلف «عموري» في الردهة وهو يرتدي «روب» الحمام. وجد صورة على المدفأة لرجل في لباس الجيش، جاءته الإجابة قبل أن يهم بالسؤال:

- زوجي.
- هل...؟
- اطمئن ليس هنا في «مونتريال»، وحتى لو كان هنا لا تقلق.
- كيف؟!
- اتفقنا منذ فترة أن لكل منا حياته الخاصة.
- تقصدين أنه يعرف...

obeikandl.com

- يفعل نفس الشيء. ألم تسمع بـ «الزواج المفتوح» Mariage ouvert؟

- كلا.

- كلانا يعشق التجديد وممارسة الجنس مع الغرباء، أليس هذا أمرًا مثيرًا؟

لم يفهم «عموري» ولم يرد ولم يُعلق. ليطرد هذه السخافات من عقله وليستمتع بجسم أول امرأة عارية ثلاثية الأبعاد في حياته. اقتربت منه فأحس بقشعريرة تسري في جلده، بدا ساذجًا أمام هذه المرأة المحترفة. كان بين يديها كقطعة من العجين تشكلها كيفما شاءت، حاول أن يداعبها كما فهم من «أساناك» من قبل في حديث مطول عن المقدمات الصحيحة للعملية الجنسية دار بينهما في المتجمد الشمالي، لكنها انقضت عليه. ما لم يقله «أساناك» أن الملاطفة خُلقت للنساء وليس للمومسات.

ناما معًا في الردهة. حاول «عموري» إقناعها بالانتقال لمكان آخر، لكنها قالت له إنها تحب المضاجعة على الأريكة بالقرب من المدفأة. تحرك جسمها صعودًا وهبوطًا محتكًّا بجسمه. احترَّ «عموري» واحمرَّ وجهه. لسان حاله يقول: «لماذا يا بروميثيوس سرقت النار من الآلهة وأعطيتها للبشر؟» مما زاد الطين بله هذه السيجارة التي تركتها المرأة في المطفأة؛ أعطاه الدخان المتصاعد منها إحساسًا بأنه يتقلب في شواية.

شعر أنه حبيس صوبة زجاجية في منطقة مكشوفة على خط الاستواء، وقع في كير مستعر أو فوهة بركان محموم أو برئ من المياه الفوارة. أراد أن يُنهي هذا الأمر، لكن المرأة كانت متشوقة للمزيد ولا ترضى إلا بالملتحم والملتصق من الأوضاع.

شعر باحترار شديد كما لو كان مرآة مقعرة تتجمع في بؤرتها أشعة الشمس. قام عنها أكثر من مرة من شدة الحرارة فتارة يغير اتجاه صورة زوجها وتارة ليشرب الماء وتارة ليسألها عن عملها وهلم جره. أزعجها هذا الأمر فقررت أن تستخدم القفل النسائي؛ شبكت يديها وساقيها خلف ظهره، كانت رغبتها جامحة وشهوتها متقدة.

نقلت إليه كمية هائلة من الحرارة بالتوصيل والحمل والإشعاع والاحتكاك ووسائل أخرى لم تنص عليها دروس الفيزياء. شعر «عموري» أن هذه المرأة هي من تشعل حرائق الغابات في العالم، شعر أن فرجها يطلق كرات نارية. لم يستطع تحمل أكثر من ذلك، أحس أن الموت ينقضُّ عليه، وصل إلى نقطة الغليان فقام من عليها فجأة والتقط ملابسه وهو يعدو إلى الهواء الطلق. توجهت إلى النافذة في غيظ، لكن حنقها انقلب إلى دهشة وهي تشاهده يُلقى بنفسه وسط الثلوج كالسمك الذي يضعون عليه الثلج حتى لا يتعفن!

مسكين... أُصيب بنزلة برد شديدة كادت تودي بحياته. نجا بمعجزة

من بوادر التهاب شُعبي ورئوي، أحس بقيمة أن يوجد من يعيش معه في مسكنه الجديد فيناوله دواءَه ويقدم له طعامه.

بعد يومين وحين تحسنت صحته نسبيًّا تذكر ما حدث له. لم تكن تجربة موفقة، أخذ يغرس إبرة حياكة في جلده وهو يصيح في حال هستيرية: «لماذا لا أعرق؟ لماذا؟ ها هو العرق. ها هو... لكنه عرق أحمر.»

توقف للحظات والدم يخرج من مناطق متفرقة من جسمه. دفن وجه بين راحتيه ودفن كمده بين جوانحه، هناك أشياء خُلقت لتُدفن في قلوبنا، ربما ما يحتاجه هو الحب وليس الجنس، ربما ما يحتاجه هو فتاة تقدر مشاعره وتتفهم ظروفه وتتواكب مع احتياجاته، لكن أين هذه الفتاة؟

في الصباح انتظر «عموري» الأتوبيس الذي يقله لمكان عمله. تأخر وصوله بعض الشيء بسبب هطول كرات من الجليد في حجم البندق، ترك رجل جريدته على المقعد وانصرف. لابد وأنه يئِس من وصول الأتوبيس أو قرر العودة إلى بيته. تناول «عموري» الصحيفة. أراد أن يشغل وقته لحين وصول الأتوبيس.

أخذ يقلب في الجريدة في سأم، توقف فجأة أمام وجه امرأة جميلة بلون الكاكاو وطعم «الشيكولاته»، شيء ما شده إلى وجهها. أخذ يقرأ الخبر. أتى الأتوبيس فقطع الصفحة ووضعها في جيبه.

في الأتوبيس أخرج الورقة مرة أخرى وانبرى يقرأ. أفاد الخبر بأن هذه

المرأة الكندية من أصول سنغالية قد قُبض عليها وهي تسرق النذور من إحدى الكنائس، حُكم عليها بسنة سجن. قالت الفتاة في التحقيقات: «ماذا سيفعل الرب بصندوق النذور وهناك من هم بحاجة إلى ما بداخله؟!»

وجهة نظر. في عطلة نهاية الأسبوع توجه «عموري» إلى سجن «مونتريال» طالبًا مقابلة «بيناتا»، وهو اسم الفتاة. رفعت سلطات السجن الطلب إلى «بيناتا» فرفضت لأنها لا تعرفه، كرر «عموري» المحاولة في الأسبوع التالي وجاءت الإجابة أيضًا بالرفض.

في الأسبوع الثالث وافقت «بيناتا» على الزيارة؛ أثار إصراره فضولها، أرادت أن تعرف ماذا يريد هذا الشخص منها؟! أجمل الأشياء هي التي تأتي دون أن نطلبها. مد «عموري» أصابعه لها من وراء القضبان مسلمًا عليها. سألته:

- من أنت؟
- أنا «عموري».
- وماذا تريد مني؟
- لا شيء؟!
- لاشيء؟! تأتي هنا لثلاثة أسابيع متتالية من أجل لا شيء!
- أريد أن أتكلم معك.
- عن ماذا؟ هل أنت صحفي؟

- صحفي! لا بالطبع. أريد أن نصبح أصدقاء.
- أصدقاء! أنا لا أصادق الرجال.
- لم؟!
- لا أشعر بميل تجاههم.
- لا أطلب إلا صداقتك. صداقة مجردة من أي شيء. أريد أن نتشارك.
- نتشارك؟!
- نعم... نتبادل الكلام. يسمع كل منَّا الآخر.
- أليس لديك في «مونتريال» على رحابتها من يصغي إليك ويجاذبك أطراف الحديث؟!
- كلا.
- عجيب!
- من الجميل أن يكون لدينا من يناصفنا الحزن ويقاسمنا الفرح. من الجميل أن يكون لدينا من يشاطرنا الحلم.
- ألا ترى هذه القضبان؟!
- وهل تحول القضبان دون نشوء الصداقة؟
- تصادق فتاة تسرق الكنائس؟
- كلنا نسرق.
- هل تمارس السرقة أنت أيضًا؟

obeikandl.com

- لا ... قصدت أن لكل منا ذنوبه.
- قلت ما اسمك؟
- «عموري».

توطدت العلاقة بينهما. قد لا تمنحك الحياة الشخص الذي تريده، لكن تمنحك الشخص الذي تحتاجه. ظل «عموري» يزورها بانتظام في عطلة نهاية الأسبوع. لم يكن لها أحد في «مونتريال» تمامًا مثله. شعر بتعاطف معها وبوجود صلة ما بينهما، تكلما في كل شيء وضحكا من قلبيهما. انقلبت الآية فأصبحت «بيناتا» تنتظر زيارته بفارغ الصبر.

اتفقا على العيش معا بعد خروجها من السجن. أخبرته أنها كذبت عليه فيما يختص بميلها للنساء. أرادت أن تنفره حتى تستجلي ما يريد بالضبط منها.

حكى لها «عموري» قصته. لديها قصة مشابهة، تنتمي لعائلة من العبيد الذين حُملوا غصبًا إلى أمريكا الشمالية، عانت هذه العائلة من التفرقة العنصرية في جنوب الولايات المتحدة فهربوا نحو الشمال حتى دخلوا كندا.

فعلا نجد الحب صدفة حين لا نفكر فيه، أجمل ما في الصدفة أنها تأتي بلا انتظار. كم كان «عموري» ممتنًّا لتلك «السرنديبية» **Sérendipité** . في «سرنديب»، الاسم القديم لـ«سريلانكا» نشأت هذه الكلمة. عاش

هناك ثلاثة أمراء قادتهم الصدف إلى أشياء جميلة. وكما قادت المصادفة السعيدة «كولومبس» إلى شواطئ أمريكا و«فلمنج» إلى «البنسلين» قادت الصدفة «عموري» إلى «بيناتا».

«هل الحب قدر أم قرار؟» هكذا سأل «عموري» نفسه. إذا لم تكن «بيناتا» قدره فهي على الأقل اختياره. هذه هي الإجابة ببساطة. كم كان «عموري» ممتنًّا لهذا الرجل الذي طوح بالجريدة. أصبح يهفو لعطلة نهاية الأسبوع بعد أن كان ينتابه السأم خلالها، أصبح أشهر متردد على السجن وأشهر زائر له، صار وجهه محفوظًا لدى السجانات والسجينات. احترَّمن مشاعره ووفائه لهذه الفتاة.

قالت له «بيناتا» يومًا:

- هل تعلم يا «عموري» أني سأتم الواحد والثلاثين في الأسبوع القادم؟
- أجل أعلم. كل عام وأنت طيبة.
- يعتقد سكان «كيبيك» أنه حين تتم المرأة واحد وثلاثين عامًا فإن السنة المقبلة عليها تحمل خيرًا جميلاً لها.
- ربما كان زواجنا.
- هل تعتقد ذلك؟
- ليس لدي شك.

- لقد منحتني الأمل في الحياة.
- الأسبوع القادم نحتفل بعيد ميلادك سويًّا. في العام القادم نبتاع الحلوى والشموع، ونرقص حتى الصباح. أنا وأنت... أنا وأنت فقط.
- سيكون هذا جميلا.
- أجل.

مضت الأسابيع و«عموري» يشطب عليها في التقويم في ارتقاب اللحظة التي ستخرج فيها «بيناتا» لتقاسمه حياته. أخذ يتخيلها معه في كل متر من مسكنه. هنا أمام هذا الموقد سيعد معها حساء الشوفان، وعلى هذه الأريكة سيجلسان للحديث معا، وهنا وهنا وهنا...

قبل إطلاق سراح «بيناتا» بأسبوعين أخذ «عموري» لها وردا وانطلق إلى السجن. لم يستطع الدخول هذه المرة، سأل فرد الأمن الذي يعرفه تمامًا:

- ما الخطب اليوم أيها الصديق؟ هل لديكم تفتيش؟
- لا.
- حسن. ألن تسمح لي بالدخول؟
- للأسف لن تستطيع ذلك اليوم.
- لم يا «أولوند»؟

- لا أعرف ماذا أقول لك.
- لا بأس. يبدو أن لديك سببًا قويًّا. هل يمكن أن توصل هذه الورود لـ «بيناتا»؟
- لا... لا يمكنني ذلك أيضًا.
- لم يا رجل؟!
- «بيناتا» ماتت يا «عموري».
- ماتت! ماتت!! ماذا تقول؟! كيف حدث ذلك؟!
- وفاة طبيعية.
- لم تكن مريضة!
- الموت لا يخضع للمنطق. ليس ضروريًّا أن يكون هناك سبب لتنتهي حياتك، الموت لا يأتي بغتة يا «عموري»؛ إنه يبدأ فور ولادتنا مباشرة.
- كيف حدث هذا؟! كيف حدث هذا؟!
- يحدث كل يوم، لكننا لا ننتبه.
- هل يمكن أن ألقي نظرة عليها؟
- لقد دفنت منذ يومين في مقبرة البلدة.
- كيف حدث هذا؟! لقد كنت في انتظارها، رتبت غرفتي من أجلها! ابتعت ستارة وسجادة جديدة! أصلحت السرير! ابتعت لها هذه الورود!

obeikandl.com

- عد بورودك يا «عموري»، وليكن الرب معك.

لم يحرك «عموري» ساكنًا لدقيقة أو يزيد. سقطت الورود منه على الأرض. سار عليها نحو سكنه وهو غير مصدق أن «بيناتا» لم تعد موجودة.

لماذا يفقد كلَّ من أحبهم؟! أي منطق هذا الذي تسير عليه الحياة؟! سقطت ريشة «ماعت»! صدق «شكسبير» حين كتب في مسرحية «الملك لير»: «نحن البشر دُمًى في يد القدر؛ تعبث بنا الآلهة، تردينا في لهوها بنا كما يقتل الصبية الفراشات».

خطوة للأمام وخطوتين للخلف. ساعة رملية تزيد وتنقص في نفس الحيز. بندول... هذا هو مختصر أيامه، ماكينة الحزن في حياته تعمل بالنشوء الذاتي. كلما أخرج رأسه من الصدَفة نال صفعة فيعود أدراجه. متوالية من الألم، حياة بنكهة الوجع.

دخل «عموري» في حالة من الاكتئاب استمرت لشهور. يذهب إلى عمله ويعود إلى حجرته ليدخن وينام وسط رائحة التبغ، الاستثناء الوحيد هو زياراته لقبر «بيناتا»، يجلس هناك بالساعات في عطلة نهاية الأسبوع. يشعر أنها تتحدث معه، يشعر أنها ما زالت على قيد الحياة، كل ما في الأمر أنهما استبدلا مكان اللقاء من السجن للمقبرة.

في يوم من الأيام وأثناء تجوله بالغرفة تسمَّرت عيناه على مروحة «كوبسس» مطوية ومعلقة في مسمار على الحائط. تناول المروحة وفتحها،

ثم أخذ يهوى بها على نفسه متذكرًا صاحبتها. استحضر وجهها بكل تفاصيله. يا تُري كيف صار شكلها الآن؟

تلك الليلة حلم بـ «بورفؤاد» فرأى أمه والسيد «روشيتو» و«كوبسس» والقناة. على الأقل ما زال هناك بصيص بسيط من الأمل في هذه الحياة. يمكنك أن تدهس الورود، لكنك لا تستطيع أن تؤخر الربيع.

توجه في الصباح إلى القنصلية الفرنسية بـ «مونتريال». استفسر عن «آل روشيتو». طلبوا منه مراجعتهم بعد أسبوعين. فعلا ذهب في الموعد المحدد. أمدوه بتسع عائلات تحمل اسم «روشيتو»، في «نيس» و«كان» و«كاليه» و«ستراسبورج» و«جرونوبل» وغيرها. مر على الأسماء والوظائف: الحدادة، إصلاح السيارات، ملاءٍ ليلية وغيرها. التهم السطور في لهفة. قرأ قرب نهاية الورقة: «السيد ريمون روشيتو. عمل بقناة السويس. توفى عام ١٩٦٣. دفن في مسقط رأسه بجرونوبل».

«توفى عام ١٩٦٣». آلم «عموري» هذا السطر، لكنه تنفس الصعداء. إنه هو. نعم هو. إحساسه ينبئه بذلك. المشكلة الآن هي المال. عاد إلى البيت مسرعًا، أخرج حصالته التي يضع فيها نقوده منذ سنين. يكفي المبلغ بالكاد لرحلة ذهاب وعودة إلى فرنسا، من حسن حظه أنه أوان فصل الشتاء فيمكنه التنقل دون قلق على حالته الصحية، ثم إن «جرونوبل»

تلك كما فهم من موظف القنصلية تقع في منطقة مرتفعة على حدود جبال «الألب».

استعد نفسيًّا لمهمته القادمة، «البحث عن كوبسس». تصلح هذه العبارة كعنوان لرواية أو فيلم سينمائي. ربما أمكنه عن طريقها الاهتداء أيضًا إلى أمه. من المحتمل أن يكون السيد «روشيتو» قد اصطحبها إلى فرنسا. لو أن هذا صحيح لتأكد أن الزمن قد تصالح معه. لابد وأن أمه قد أصبحت كبيرة في السن، من المؤسف أنه لا يحتفظ بصورة لها، لكن يمكنه أن يتعرف عليها حتى لو وقفت بين مليون امرأة.

تقدم بإجازة من عمله، جمع أغراضه في حقيبة صغيرة وتوجه إلى المطار، بعد أقل من ساعتين كانت الطائرة فوق الأطلنطي متجهة صوب القارة العجوز. يا ترى ماذا تُخبئ له الأيام في جعبتها؟

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٠)

حزمت «كوبسس» حقيبتها وأدوات الرسم وطارت في نهاية عام ١٩٧٥ إلى «إسطنبول». في الطائرة أخرجت ديوان شعر ابتاعته من مطار «أورلي»، توقفت طويلا أمام قصيدة للشاعر البلجيكي، «موريس ميترلنك» بعنوان «بحثت عن الحب». أحست أن القصيدة تخاطبها، أو أنها هي المقصودة بها، أعادت قراءتها مرة ومرات:

بحثت عن الحب
في بلد غريبة
بحثت عنه في البحار
وفي أعماق الغابات
ثلاثة رعاة أحبوها
ثلاث مدن عانقتها
ثلاثة ملوك تزوجوها
بحثت عن الحب
ولم تعثر عليه

تعود إلى القصر

عجوز يطرق الباب

طرق طرقًا شديدًا

بحلقة ذهبية

حتى أنه خرق الباب

«ماذا تفعلين هنا؟»

مازلت أعرفك

بعد أكثر من ثلاثين سنة

أنا أيضًا أعرفك

أنا أنتظرك هنا

ما أشد بياض شعرك

منذ ثلاثين سنة أنتظر

أعطني يدك

يداك ملطختان بالدماء

أنا أطرق منذ ثلاثين سنة.[٧٧]

شردت «كوبسس» وهي تفكر في الثلاث مدن والثلاثة رجال في حياتها: «باريس وجرونوبل وبورفؤاد، جابريل ورولان و... و... وعمر.» أجل عمر. من غيره يكون؟ عمر هو حبها الأول، كيف لم تنتبه إلى ذلك؟

obeikandl.com

تخبطت كثيرًا في الطريق؟ هو وحده من يستطيع أن يمحو أحزانها بكلمة. رغم بعد المسافات وقسوة الأيام، الأمل في اللقاء باق في القلوب. المسافات لا تقرب أحدًا ولا تُبعده. القلوب هي التي تفعل ذلك.

جلست منذ يومين تشاهد فيلم «السويس»[٧٨] وهي تقلب قدحًا من الشاي بالرغم من أنها تحتسيه بدون سكر. انتبهت لهذا الأمر فأخرجت الملعقة، تجمدت في فراشها، تذكرت أباها، تذكرت أيامها على شاطئ القناة، تذكرت فاطمة وعمر، يا تُرى أين هما الآن؟ وهل اجتمع شملهما؟ فاتها أن تسأل أباها عن المكان الذي ذهب إليه عمر، تظن أنها سمعته يقول كندا، لكنها ليست متأكدة. عجيب أمر هذه الحياة!

تمنت لو لديها فسحة من الوقت فتستقل سفينة من «إسطنبول» إلى الإسكندرية، عاشت في مصر، لكنها لم تبرح إقليم القناة. لديها رغبة في زيارة الأقصر وأسوان وغيرهما. أرادت أن ترسم «أوزوريس وإيزيس» و«رمسيس ونفرتاري» و«إخناتون ونفرتيتي». ربما في مرة قادمة.

قررت أن تشرع في البحث عن عمر قبل أن يبيض شعرها كما تقول القصيدة. من يدري ربما كان هو من يدق على الباب خلال كل هذه السنين الماضية؟ لا يمكن أن تجافي الحياة بسبب شخصين أو ثلاثة لا يستحقون مجرد التفكير فيهم. لا يمكن أن تحرق منزلك لتتخلص من بضع حشرات، الأصوب أن تذبها خارج البيت لتستمتع بأجواء نظيفة.

فتشت أمس في صندوق والدها الخشبي الذي اعتاد الاحتفاظ بالأوراق الهامة فيه، وجدت غليونه وعلبة سيجار من كوبا، كان هناك أيضا خريطة لقناة السويس وصورة لـ «دليسيبس». عثرت كذلك على وثيقة زواجه وطلاقه من أمها، وجدت آلة تصوير من طراز «رويفليكس».[٧٩] تذكرت أن أباها أرسل في طلب هذه «الكاميرا» من فرنسا، وأنه التقط بها صورًا عديدة. بالفعل وجدت صورة لأمها وصورة لفاطمة وهي تحملها على ذراعيها، وقعت في يديها تحاليل طبية تُشير إلى أن عمر يعاني من عدم التعرق، لكنها لم تعثر على أي شيء يحدد مكانه بالضبط، أخيرًا وجدت شيئًا آخر لم يكن على البال أو الخاطر؛ الصورة التي رسمتها لعمر بالقلم الرصاص على ورقة من كراسة رسم. تمتمت شفتاها بصوت خافت: «عمر». جاءها صوته عبر السنين وهو يقول: «لماذا جعلت أنفي يبدو على هذا النحو؟!»

قبلت الصور جميعا وقربتها من صدرها. دققت النظر في صورة عمر، قررت أن تبر بوعدها وترسم له «بورتريه» كبير بأنف أقل حجما. نعم عمر هو من يبحث عنها الآن ويدق بابها، لابد أنه هو.

هزأت من أفكارها. حتى لو كان عمر موجودًا، هل يعني ذلك أنه يتذكرها أو ينتظرها؟! Lion des yeux, lion du Coeur «البعيد عن العين، بعيد عن القلب»، كما يقولون.

ربما غلب عليه المرض، ربما تزوج وأنجب، ربما رحل عن كندا إلى أي بلد آخر ثم إن كندا بلد كبير، ثم إنها لا تعرف اسمه الجديد، ولا مهنته، وهل تمكن من إكمال تعليمه من عدمه؟ من المؤكد أنه لم يذهب إلى الجامعة، ماذا لو كان يمتهن عملا يدويًّا؟ ماذا لو كان لا أحد؟ شخص بلا وضع اجتماعي أو حيثية.

عادت «كوبسس» فسَخَّفَت تفكيرها، ما هذا التخريف؟ كل هذه الأشياء لا تهم بالمرة. حين عرفته في طفولتها كان ذلك بلا قيود أو شروط. المهم أن تجده، إذا كان في كندا حقًّا فلابد أنه في المناطق الناطقة بالفرنسية، استنتاج جيد. تحتاج مزيدًا من هذه الاستنتاجات لتصل ليه.

حطت طائرة «كوبسس» في «إسطنبول»، بعدها بساعات نزلت الطائرة التي تقل «عموري» مطار «شارل ديجول» بباريس. وضعت «كوبسس» حاجيتها في الفندق وانطلقت بأدوات الرسم إلى مقبرة «كوبسس هانم».

ما إن ولجت في المقبرة حتى شعرت أنها رأت هذا المشهد من قبل، ربما في حلم أو ما شابه. حاولت التذكر، لكنها فشلت. حياتنا مجموعة من المشاهد جلُّها مكررة، لكن هناك مشاهد محددة تسيطر على تفكيرنا سواء في اليقظة أو في المنام. على أية حال ما تريده «كوبسس» الآن هو تفسير الواقع لا الأحلام.

تعمدت السير على الأوراق الجافة التي سقطت من الأشجار في المقبرة. تستمتع بصوت سحق هذه الأوراق، وقفت أمام قبر «كوبسس» بمشاعر متضاربة، كانت قد انتوت أن ترسمه، لكنها لم تستطع. كُتب على الشاهد: «آه من الفراق». لم تمكث «كوبسس» في المقبرة طويلا، أما «كوبسس» الأخرى فقد رقدت هناك منذ عام ١٨٨٨.

انطلقت «كوبسس» لتناول «الشاورما» في أحد مطاعم ««إسطنبول» اسمه Kismet، يعني «القسمة والنصيب»، تسمية غريبة. لابد وأن صاحب المحل قد مرَّ بقصة حب فاشلة، يؤكد ذلك تلك اللوحة المعلقة داخله والتي تقول كلماتها: «ربما لا أكون نصيبك، لكنى الوحيد الذي أحبك».

طلبت كوبًا من القهوة التركية القوية، دققت في وجه الفنجان. أخذت منه رشفة، تبدد وجه القهوة. قرأت ذات مرة قصيدة يقارن ناظمها بين بكارة المرأة ووجه القهوة، شعرت بالغثيان، تركت الكوب وانصرفت متوجهة بلوحة الرسم إلى جسر «البوسفور» الذي تتعانق عبره قارتا أوروبا وآسيا.

زارت أيضًا «السوق الكبير» المعروف بـ «البازار المصري». ذهبت إلى قصر «توبكابي» أو الباب العالي، في هذه القُصُر كان السلاطين يحبسون إخوتهم من الذكور في أقفاص ذهبية مع جوارٍ منزوعات الأرحام

والمبايض حتى لا ينجبن.

لم تشعر «كوبسس» بالراحة في الحرملك، قال المرشد السياحي إن الجواري كنَّ يتزين هنا ويتجملن من أجل السلطان. لابد وأن التفوق في ممارسة الجنس كان من الأسباب التي ترفع من شأن المحظيات! لا تدري «كوبسس» لماذا لكنها تخيلت أمامها حفلة «أورجي» يشارك فيها السلطان وجواريه. أضاف المرشد السياحي أن أحد السلاطين أمر بوضع جواريه في أكياس وإلقائهن في البحر. جلب ذلك لها التعاسة حين تذكرت السطوة الذكورية في شخص صديقها «جابريل» وزوجها السابق «رولان». خرجت من المكان مهرولة.

في انتظار حقيبته وقف «عموري» يراقب الوجوه حوله. خارج الحاجز الزجاجي للمطار وضعت فتاة كف يدها مقابل يد فتى يقف بالداخل، بالقرب من المشهد انهمك عامل نظافة في مسح الزجاج. انطبقَ الكفان تمامًا. رسمت الفتاة قلبًا على الزجاج الذي استقرت عليه الشبورة. اضطر الفتى للرحيل، ربما ليلحق بطائرته. لم تُحرك الفتاة ساكنًا. وقفت دون حراك أمام اللوح الزجاجي. بدأت الحرارة تتلاشي عن انطباع كفيهما. ظل «عموري» يتابع المشهد.

تحرك عامل النظافة ليجلي باقي ألواح الزجاج، توقف أمام انطباع الكف، ناشده «عموري» في سره ألا يزيله. بالفعل تركه عامل النظافة

وتخطاه للوح التالي. فجأة ظهر الفتى خارج صالة المطار. أغلب الظن أنه تخلى عن فكرة السفر، نادى على حبيبته، التفتت إلى مصدر الصوت، طارت نحو ذراعيه المفتوحتين، عانقها وطوحها في الهواء. أي شيء في الدنيا يعدل هذه اللحظة؟ قل لي؟ لا شيء. ما أجمل العشق؟

استلم «عموري» حقيبته وانطلق نحو «جرونوبل» بالقطار. جلس أمامه عجوز فرنسي أراد أن يستأنس بـ «عموري» خلال الرحلة فتوجه إليه بالسؤال:

- هل أنت ذاهب إلى «جرونوبل»؟
- أجل.
- بلدة جميلة. مسقط رأسي.
- حقًّا؟
- من أين أنت؟
- من كندا.
- قطعت مسافة طويلة؛ لابد أنه لديك سبب وجيه.
- فعلا.
- هل تسمح لي أن أعرفه؟
- أبحث عن فتاة ضاعت مني منذ عقدين تقريبًا.
- تنهد العجوز تنهيدة طويلة ثم قال:

obeikandl.com

- لا يهم... عقدين أو ثلاثة. المهم أن تبحث عنها. إياك أن تتوقف عن البحث. أتعرف؟

- نعم.

- فقدت فتاتي أثناء الحرب العالمية الثانية. ذهبت للقتال في هولندا. حين عدت لم أجدها، كانت تعمل في التمريض بالعاصمة. بحثت عنها كثيرًا، لكني لم أجدها، لم أكف عن لوم نفسي.

- لماذا إذن؟!

- ربما كان يجب عليّ أن أبذل مجهودًا أكبر في البحث عنها في وقتها.

- فهمت.

- بالرغم من ذلك لم أفقد الأمل في العثور عليها ولم أكف عن البحث.

- فعلا؟

- نعم. يموت الإنسان حين يتوقف عن البحث.

- في هذا العمر؟

- الأشياء التي تأتي متأخرة تكون جميلة؛ نفرح بحمَّام ساخن حين نظل لفترة بين الأتربة والعرق، نفرح بالفراش حين يحل بنا التعب؛ نفرح بعودة الكهرباء حين نجلس فترة طويلة في الظلام ونفرح بالطعام حين يستبد بنا الجوع.

obeikandl.com

- أصبت.
- على أي حال أتمنى لك التوفيق.
- شكرا لك.

وصل هناك في ساعة مبكرة. اتجه إلى البلدية مستفسرًا عن منزل «آل روشيتو»، أعطوه خريطة مشى عليها حتى وصل إلى غايته. حين اقترب من البيت خفق قلبه بشدة، عرف أنه البيت الصحيح من السياج الخشبي الذي يشبه نفس السياج الذي لف بيت السيد «روشيتو» في «بورفؤاد»، لا بد أنه صنعه بنفسه.

قرع الباب فلم يرد أحد. نظر حوله فلم يجد من يسأله أو يستفسر منه، عاد يقرع الباب من جديد، وضع سبابته ووسطاه في فمه وصفر صفارتهما المعهودة، لكن السكون كان سيد الموقف. حاول النظر عبر النوافذ، لكن البيت كان مظلمًا.

توجه إلى صندوق البريد الخاص بالمنزل. وجد بابه مفتوحًا. مد يده فأمسك بأحد الخطابات. كان الخطاب موجها إلى «كوبسس». أجل «كوبسس». دق قلبه بشدة. أدرك أنه وصل إلى المنزل الصحيح، لكن ساكنته لم تكن موجودة. ألقى نظرة أخرى على الخطاب فوجد أنه مُرسل من إحدى المدارس. وقف محتارًا لا يعرف ماذا يفعل؟

أخرج من حقيبته المروحة التي أعطتها له «كوبسس» منذ سنين

obeikandl.com

خلت، وضعها داخل صندوق البريد، فكر أن يكتب لها خطابًا مع المروحة، تمنى أن يكتب لها ألف خطاب لا يحوي أي منها أكثر من كلمة «أحبك». أخرج ورقة وقلمًا من حقيبته، لكن شيئًا ما منعه من ذلك. خشي أن تكون متزوجة ولديها أولاد فيسبب لها مشكلة. يقول أفلاطون: «في الحب خطابات نبعث بها وأخرى نمزقها، وأجمل الخطابات هي التي لا نكتبها». المروحة هي رسالته إليها. المروحة وحسب تفي بالغرض.

حين همَّ بإعادة الورقة والقلم إلى حقيبته وجد الملصق الذي يوضح اتجاه رحلته فنزعه من على الحقيبة ولفه حول يد المروحة، هذا يكفي. ربما أراد أن يترك الأمر كله للقدر. من يريدك حقًّا سيفعل المستحيل كي يبحث عنك ويكون بجانبك.

انطلق «عموري» بعد ذلك إلى المدرسة المبين عنوانها على الخطاب. عرف هناك أن «كوبسس» تقدمت بأجازة مفتوحة، وأنها كانت تنوي السفر خارج البلاد. أراد أن يسأل: «بمفردها؟»، لكن الحياء منعه. لمحت الموظفة خيبة أمله فقالت:

- يمكنك التوقف عند محل أحذية Belles chaussures لتستفسر أكثر عن مكانها. إنه ملك لزوجها على ما أعتقد.
- زوجها؟!
- نعم.

تطوعت الموظفة بهذه المعلومة بحسن نية. ربما لم تكن تعلم بطلاق «كوبسس» لأن الأخيرة كانت متحفظة في التحدث عن حياتها الخاصة. شكرها «عموري» وانصرف. فكر في العودة لبيت «كوبسس» واستعادة المروحة، لكنه لم يفعل.

انطلق عائدًا إلى باريس وقد اسودَّت الدنيا تمامًا في وجهه. أين يهرب من وجعه؟ كل الطرق تُسلمه له. ألا نستحق أفضل من هذا في تلك الحياة؟ كانت «كوبسس» آخر أمل له، من الطبيعي أن تكون «كوبسس» متزوجة ولديها أسرة. كان يجب أن يتوقع ذلك ولا يُسرف في التفاؤل. شعور قاس أن تشتاق لشخص وتبحث عنه ثم تجد أن الطريق إليه مسدود.

عادت «كوبسس» إلى «جرونوبل» فوضعت حقيبتها في المنزل وتوجهت نحو صندوق البريد لتتناول مكاتباتها. فتحت باب الصندوق ومدت يدها فأخرجت بعض المراسلات والمروحة، أمسكت بها في دهشة، نزعت الملصق حول اليد ثم فتحتها. دق قلبها بشدة. مرت أمامها السنون في ثانية واحدة. «عمر. المروحة. مروحتي التي أعطيتها لعمر. كيف أتت هنا؟ لابد أن عمر كان هنا؟ أو مازال هنا. عمر... عمر.»

انطلقت عدوًا حول البيت، لكنها لم تجده. عادت تفتش في صندوق البريد عن أي ورقة، لكن الصندوق كان خاليًا. انطلقت للمنزل لتفحص

خطابتها، لاشيء. جلست تنتظره بجوار هاتف المنزل، لكنه لا يعرف رقمه، لابد وأنه سيعود. ربما ذهب لتناول الطعام. لابد وأنه سيعود أو على الأقل سيتصل.

رن الهاتف. رفعت السماعة في نصف ثانية وأنفاسها آخذة في الصعود والهبوط قائلة «عمر؟» لم يكن عمر، بل كلية الفنون الجميلة بجامعة «السوربون». رُشحت للاشتراك بصفة أولية في معرض خارج فرنسا مع أخريات. نزل الخبر عليها بردًا وسلامًا، واعتبرته تعويضًا من الرب عما قاست في حياتها.

انتظرت وانتظرت، لكن عمر لم يعد ولم يتصل. تذكرت الملصق الذي نزعته من المروحة. سارعت إلى الخارج تبحث عن الملصق حول الصندوق، لكنه لم يكن هناك. سارت في اتجاه الريح. بعد عشرة أمتار وجدت الورقة في حضن سياج من الشجيرات.

تناولتها على عجل وقلبها يخفق بشدة. كان على الورقة رقم الرحلة بالإضافة إلى الحروف التالية CA (YMQ)- PAR (CDG)، كندا (؟) - باريس (مطار شارل ديجول). عادت إلى المنزل على التو. اتصلت بمطار «شارل ديجول» مستفسرة عن الرمز YMQ. جاءت الإجابة: «مونتريال، مقاطعة كيبيك». استفسرت عن إمكانية البحث عن اسم بين قائمة الركاب. جاءت الإجابة بالنفي؛ لا يسمح بذلك إلا بطلب من السلطات الأمنية.

ظلت تفحص صندوق الخطابات كل يوم، لكن لم يصل من عمر أي شيء. «لماذا لم يُخبرني أنه قادم؟ لكن كيف وهو لا يعرف عنواني؟ كيف وصل إلى هنا أساسًا؟!» كاد عقلها أن يجن. «كوبسس» تلك التي ترقد على «البوسفور» تتحكم في حياتها على نحو عجيب. لابد وأنها من دعتها إلى «إسطنبول» لتفوت عليها لقاء عمر. لامت نفسها على سفرها الأخير، لكنها لم تفقد الأمل تمامًا في لقائه. الأخبار السعيدة هي أن عمر موجود، وأنه في «مونتريال»، وأنه أيضًا يفكر فيها ويبحث عنها.

openkandl.com

(١١)

مرت الأيام و»كوبسس» في الانتظار. تترقب وصول خطاب من عمر أو برقية أو ما شابه، لكن شيئًا لم يحدث، أمضت صيف ١٩٧٦ في الرسم ومتابعة أولمبياد «مونتريال» في التلفاز. تدقق في المشاهدين كما لو أنها تبحث عن عمر بينهم. كان ينبغي عليها أن تذهب إلى «مونتريال» لمشاهدة الأولمبياد على الطبيعة والبحث عن عمر.

في يوم من الأيام دق جرس الباب، نظرت «كوبسس» إلى الطارق من بين ستائر الردهة فوجدته ساعي البريد. دق قلبها بشدة وهي تهرول نحو المدخل. وقعت باستلام البرقية وشكرت رجل البريد. سرعان ما بدت عليها ملامح الإحباط، لم تكن البرقية من عمر بل من كلية الفنون الجميلة بجامعة «السوربون» تستدعيها للحضور إلى باريس.

بالفعل توجهت «كوبسس» إلى باريس، وهناك علمت أنها رُشحت للاشتراك في المعرض الخارجي لخريجي كلية الفنون الجميلة بجامعة «السوربون»، والذي سيقام في شتاء ١٩٧٧ على التوازي في «بروكسيل» و»جينيف» و»مونتريال». طلبت الإشتراك في معرض «مونتريال»

فنالت ما طلبت. حداها الأمل أن تعثر على عمر خلال فترة المعرض التي لا تتجاوز الأسبوع.

في الطائرة من جديد، لكن هذه المرة في اتجاه الغرب مع دفعتها «نيكول». خالطها شعور بأنها ستجد عمر، لا تدري كيف، لكن هذا ما شعرت به. إحساسها لا يكذب، خاصة فيما يتعلق بعمر لأنه النقطة الناصعة البريئة البيضاء في حياتها، اليوم يُكمل عمر عامه الخامس بعد الثلاثين. ما زالت تتذكر تاريخ مولده، أما هي فقد تخطت الاثنين والثلاثين في الربيع الماضي. سألتها «نيكول»:

- «كوبسس» ماذا صار من أمرك أنت والفتى من الجنوب...؟
- «جابريل»؟
- أجل «جابريل».
- لم تستمر علاقتنا.
- لم تحاولي ثانية؟
- بلى... تزوجت من رجل في «جرونوبل»، لكني فشلت مرة ثانية. وأنت؟
- تعرفت على شباب كثيرين، لكني تزوجت في النهاية من فتى كان معي في المدرسة الابتدائية. قال لي إنه ظل يحبني منذ الصف السادس. هل تصدقين ذلك؟ أليس هذا شيئا جميلا؟
- بكل تأكيد.

obeikandl.com

- لدينا طفل في الثالثة. اسمه «موباسان».
- هذا رائع. أنا سعيدة من أجلك. «موباسان»... سمعت هذا الاسم.
- قصاص فرنسي شهير.[٨٠]
- أجل... أجل.
- زوجي درس الأدب الفرنسي وهو متيم به.
- حقًّا؟
- نعم... كل يوم يحكي لي عن «هوجو» و«روسو» و«لامارتين» و«راسيل» و«سارتر» وغيرهم.
- ما أجمل ذلك. أنت محظوظة.
- وأنت يا «كوبسس»؟
- ماذا عني؟
- هل في حياتك رجل الآن؟
- لا. ليس بعد.

في «مونتريال» وبالرغم من ذلك لم تعرف «كوبسس» من أين تبدأ؟ المدينة كبيرة والوقت ضيق. لم تهتد لخيط تسير وراءه. كان يجب على عمر أن يترك بياناته مع المروحة. لماذا لم يفعل ذلك؟! لماذا؟!

تتواجد في المعرض بجانب لوحاتها من العاشرة صباحًا حتى الخامسة

obeikandl.com

بعد الظهر، بعدها تسير في الشوارع مع «نيكول» تتطلع في وجوه البشر على أمل أن تجد عمر وسطهم. تفكير ساذج، لكنه يريحها. تعود إلى الفندق متعبة فتُسلم نفسها للفراش.

في منتصف الأسبوع كانت «كوبسس» تغير ملابسها استعدادًا للنوم حين دخلت عليها «نيكول» التي تشاركها الغرفة. سارعت «كوبسس» بشكل عفوي فسترت صدرها مستدعية، ربما، ما حدث لها آنفًا في المدينة الجامعية مع «ماتيلدا». تعجبت «نيكول» من هذا التصرف فانبرت سائلة:

- «كوبسس»... ما بك؟
- لا شيء. فقط باغتيني.
- أنت تعرفين أني قصدت مكتب الاستقبال في الفندق؟
- أجل... أجل فقط كنت مشغولة البال.
- فعلا لاحظت عليك هذا الشرود. أشعر أنك تبحثين عن شيء ضائع منك.
- ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟
- لا أدري... مجرد إحساس.
- الحقيقة...
- الحقيقة أنني لن أجعلك تنامين الليلة قبل أن تخبريني بحكايتك. ربما استطعت مساعدتك.

opelkandil.com

في المساء حكت «كوبسس» قصتها كاملة لـ «نيكول». صحيح أنها لم تكن صديقة مقربة لها أثناء الدراسة في «السوربون»، لكنها شعرت بالراحة وهي تتكلم معها. في الواقع لقد ندمت أنها لم تعرفها عن كثب أثناء الدراسة، شعرت بالرغبة في الحديث ووجدت أذانًا صاغيةً وقلبًا متعاطفًا. حكت لها عن عمر وعن «بورفؤاد» وعن والدها وأمها وتجربتها الفاشلة مع «جابريل» وصانع الأحذية. بكت على صدرها فاحتضنتها «نيكول» قائلة:

- هوني عليك. أواثقة أنت أنك ستجدين عمر هنا؟
- لا أدري. أحيانًا أشعر أني سأجده، وأحيانًا أخرى أشعر أني أسبح في بحر من الأوهام.
- اسمعي يا «كوبسس»... تذكرين حديثنا عن «موباسان»؟
- طفلك؟
- لا الكاتب.
- أجل.
- لقد كتب هذا الرجل قصة قصيرة أريد أن ألخصها لك. ربما كان لها فائدة في حالتك.
- أي قصة.
- الحقيقة لقد نسيت عنوانها، لكنها تقول ببساطة إن السيد «لواسيل» وهو موظف بسيط الحال عاد من عمله ليخبر زوجته

openkanal.com

أنهما مدعوان لحفلة هامة. ذهبت الزوجة إلى إحدى معارفها لتستعير منها عقدًا من الماس تحضر به المناسبة، ضاع العقد منها فاضطرت أن تشتري آخر بالدين لتعيده للمرأة، ونتيجة لذلك ظلت مدام «لواسيل» تعمل لسنوات طويلة هي وزوجها حتى يستطيعا تسديد ثمن العقد. في يوم من الأيام قابلتها السيدة التي استعارت منها العقد آنفًا فانزعجت من حالة البؤس التي تعيش فيها. أخبرتها مدام «لواسيل» أن كل هذا بسبب العقد وحكت لها القصة، ثم كانت المفاجأة. أخبرتها المرأة أن العقد الذي أعارته لها كان من الزجاج.

- قصة جميلة، لكني لست مدام «لواسيل» التي أرادت أن تتباهى بحلي غيرها؛ أنا قنوعة يا «نيكول».
- لم أقصد هذا.
- ماذا قصدت إذن؟
- الوهم الذي قلتِ إنك تسبحين فيه، لا تنجري إلى الأوهام فتخسري أيامك وسنواتك مثل مدام «لواسيل» في القصة.
- ليس وهما يا «نيكول»؛ ما الذي يجعل عمر يقطع كل هذه المسافة إلى «جرونوبل»؟ كيف عرف أني أسكن هذه المدينة أصلا؟ لا بد وأنه قام ببعض البحث، وطالما فعل ذلك فهو مهتم.
- إذن لماذا لم يترك عنوانه أو رقم هاتف أو خلافه؟
- هذا هو السؤال الذي يحيرني.

- سادت برهة من الصمت ثم عادت «كوبسس» تسأل من جديد:
- «نيكول»... هل استعادت مدام «لواسيل» ثمن العقد؟
- لا أعرف، لكن ماذا سيفيد ذلك الآن؟ لقد فات الأوان.

قبل نهاية المعرض بيومين خرجت «كوبسس» لتناول طعام العشاء مع زميلاتها العارضات الثلاث من خريجات «السوربون». تحدثت إحداهن عن خطيبها في فرنسا الذي تفتقده. قالت أخرى:

- وأنت يا «كوبسس»؟ أليس لك زوج أو صديق؟
- جربت كل هذا ولم يحالفني الحظ.
- آسفة. لم أشأ أن أضايقك.
- لا عليك. لم أفقد الأمل تمامًا؛ ما زلت أنتظر.
- استشعرت «نيكول» تغير مزاج «كوبسس» فتدخلت قائلة:
- دعونا نغير الموضوع. انظرن يا بنات إلى هؤلاء الرجال الذين ينزحون الثلوج هناك؟

كانت الدموع قد احتبست في عيني «كوبسس». استأذنت في الذهاب إلى دورة المياه، انفجرت في البكاء أمام المرآة ولسان حالها يقول: «لماذا التهمت الأيام طفولتنا وأحلامنا وضحكاتنا؟ إلى متى سيظل الغياب سيد الموقف؟» لم يعد في القلب سوى الوجع. صمت وفي الصدر مائة

حكاية. جففت دمعها وأصلحت زينتها وهي تتمتم: «سيبقى صوتك في أذني وطيفك في مخيلتي، ستبقى صورتك في عيني ورائحتك في أنفي.»

تابعت «نيكول» الحديث أثناء غياب «كوبسس» في الحمام وهي تنظر إلى نازحي الثلوج:

- عمل شاق.

- أجل يا «نيكول»، لكنها لوحة جميلة. ليتني أستطيع رسمها.

حين عادت «كوبسس» من «التواليت» كان نازحو الثلوج قد انتقلوا لمكان آخر، كان بينهم «عموري». لم يفصلها عنه سوى بضعة أمتار، لكن اللقاء لم يتم!

كانت «كوبسس» قد باعت أغلب لوحاتها، جاءها مليونير من أصل لبناني يطلب منها شراء لوحة «معدية بورفؤاد». في الحقيقة لقد ابتاع منها لوحتين وظل يتحين الفرص للحديث معها. كرر الرجل طلبه، لكنها لم ترد. ظن الرجل أنها معترضة على المبلغ. اقترب منها قائلا:

- تعجبني اللوحة. قلت أين هذا المشهد؟

- في مصر... على قناة السويس.

- هل زرت هذا المكان؟

- نعم. بقعة جميلة.

- أنتم الفرنسيون مهووسون بالشرق. سأدفع لك الضعف. ماذا

obeikandl.com

قلتِ؟

- صمتت «كوبسس» برهة وهي تنظر للوحة ثم قالت:
- لقد أتى من اشتراها قبلك؟
- حقًّا؟ من يكون هذا؟ هل هو موجود هنا؟ يمكنني التفاوض معه بشأنها؟
- نظرت «كوبسس» حولها ثم قالت:
- ليس موجودًا الآن، لكني واثقة أنه سيأتي.
- ماذا قلت؟ لا أفهم تمامًا؟
- قلت إنه ابتاعها وسيأتي في اليوم الأخير للمعرض ليأخذها.

استأذنت الرجل وانطلقت لتباشر عملها. اقتربت منها «نيكول» قائلة:

- «كوبسس»... هذا الرجل معجب بك، لم لا تعطينه فرصة؟ يبدو لطيفًا ومهذبًا.
- لا أدري يا «نيكول». أشعر أن قلبي مغلق ولا أستطيع مجاراته.
- ليس كل الرجال مثل صانع الأحذية يا «كوبسس».
- مؤكد ليسوا جميعًا مثله.

خرجت هذه الكلمات من فم «كوبسس»، بينما راحت عيناها تنظران إلى صورة عمر. أخذت «نيكول» طرف الحديث مضيفة:

obeikandl.com

- ما زال هذا الصبي يهيمن على عقلك؟!

صمتت «كوبسس» ولم ترد. لسان حالها يقول: «أجل.» تابعت «نيكول»:

- لكنك يا «كوبسس» تظلمين نفسك.

- كيف؟

- أرخيت ستائر الحزن على حياتك، أنهكت ذاتك بالبحث عن إبرة في كومة قش، سمحت لنفسك بالسقوط في دوامة لم تُمهلك فرصة لتراجعين نفسك، تركت الألوان المبهجة وعمدت إلى الأسود حتى صارت أيامك ظلالا لبعضها البعض، ظلٌّ يُسلمك إلى ظل وحزنٌ يُسلمك إلى حزن ويأسٌ يُسلمك إلى يأس.

- فعلت كل هذا؟!

- انظري يا «كوبسس» إلى صورة الفتى. أحسبك تدركين جيدًا أننا نرسم لحظة واحدة يتجمد عندها الزمن؟ الشخوص الذين نصورهم يكبرون ويشيخون ويموتون، الأماكن التي ننقلها إلى لوحاتنا تتغير وتتبدل.

- نعم.

- سيأتي هذا اللبناني غدًا في اليوم الأخير للمعرض. أنا واثقة من ذلك، ما زال أمامك فرصة لمراجعة نفسك، كندا بلد جميل. أنا شخصيًّا أتمنى العيش فيها.

في اليوم الأخير للمعرض تساقطت الثلوج بشدة. أوقف عمر المنبه

يومها وقرر ألا يذهب للشركة، سحب قدماه المتدليتان خارج الفراش إلى الداخل، يشعر دائمًا أن شبحًا أو وحشًا سوف يشده منهما. انتابه إرهاق بسبب نوبة العمل المسائية في الليلة الفائتة، رغب في تمضية اليوم في السرير، توطدت العلاقة بينه وبين فراشه، أصبح يحب النوم حتى يهرب بإخفاقاته، عاد وتذكر أن رصيد أجازاته لا يسمح لأنه استنفذ جلَّهُ في رحلة فرنسا.

نتيجة لهطول الثلوج بشدة طلبت البلدية من الشركة تكثيف تواجدها أمام معرض الفنون الحديثة بسبب وجود الزوار والأجانب. بالفعل أرسلت الشركة مجموعة إضافية من نازحي الثلوج، وصل «عموري» إلى الشركة متأخرًا بعض الشيء. طلب منه المشرف العودة إلى بيته لأنه تم توزيع نازحي الثلوج. استدار «عموري» وهمَّ بالعودة إلى سكنه وهو يلوم نفسه على نزوله أصلا. فجأة نادى عليه المشرف.

- «عموري» جاءنا طلب لإرسال مجموعة إلى معرض الفنون الحديثة.
- حقا؟ لكم تمنيت زيارته.
- يعجبني فيك هذا المزاح ثقيل الدم.
- فقط؟
- يمكنك ركوب سيارة الشركة هناك رقم خمسة.
- شكرًا يا سيدي.

وصل «عموري» إلى المكان المحدد وبدأ في نزح الثلوج مع أترابه. كانت بعض اللوحات ظاهرة للعيان من وراء الزجاج. وقعت عيناه قدرًا على إحدى اللوحات فتسمَّر مكانه. لقد كانت صورة معدية «بورفؤاد». نعم... يعرفها جيدًا. لا يمكن أن يخطئها، لكن كيف أتت هذه الصورة إلى هنا؟

من المؤكد أن الصورة لفنان مصري. اقترب «عموري» من الزجاج، كانت الصورة تقبع أمامه مباشرة. لمح عليها حرفي .KRقال في سره: «KR...؟ KR...؟ كمال رجب؟ كاميليا روحي؟ كريم رستم؟ كوبسس روشيتو... نعم كوبسس روشيتو... المعدية. لابد وأنها هي... هي.»

دق قلبه بشدة واندفع الأدرينالين في دمه، ترك الجاروف يسقط من يده وانطلق حول زجاج المبنى علّه يراها. لم يستطع تبينها وسط الحاضرين، ربما اختلف شكلها، لكنه مازال قادرًا على التعرف عليها فقط لو أتيحت له الفرصة، سيرفض ضباط الأمن دخوله من دون شك، خاصة وأنه يرتدي زي نازحي الثلوج العجيب هذا.

خطرت له فكرة طيبة تقطع الشك باليقين، اقترب من الزجاج وراح يصفر، نظر إليه زملاؤه والمارة في ذهول. كان صفيره عاليًا فعلا لدرجة أنه شد انتباه من بالداخل من رواد المعرض.

في هذه اللحظة كانت «كوبسس» تعطي ظهرها للمدخل منهمكة في

شرح إحدى لوحاتها لأحد الزوار حين رنت الصفارة في أذنيها. أخذتها من حاضرها إلى ماض سحيق، التفتت حولها تبحث عن مصدر الصوت فانجلت اللوحة عن وجه عمر بأنف أقل حجمًا. همَّ «عموري» بتكرار الصفير، لكنه توقف حين لمح «كوبسس» بجوار صورة لون واحد، «مونوكروم»،[٨١] له وهو بعد طفل.

حددت «كوبسس» مكانه ورأته يقف وراء الزجاج. كان إصبعاه مازالا في فمه. اقتربت من الزجاج وهي تنظر إليه، تمتمت شفتاها بحروف اسمه. لابد وأنه هو. نعم هو. تغير كثيرًا، لكنه هو. أما عمر فقد وقف مكانه ساكنًا غير مصدق أن كل ما يفصله عن «كوبسس» الآن هو لوح من الزجاج المقوى.

كان هناك بعض البالونات التي تتدلى من خيوط هنا وهناك داخل المعرض، فرقعت إحداها بأظافرها ونزعت الخيط منطلقة به عدوًا نحو الخارج. تقدمت من «عموري» بشعور مضطرب، اقتربت منه حتى صار لا يفصلها عنه سوى خطوة.

وقف الحاضرون ينظرون إليهما ويتابعون الموقف وما سوف ينجلي عنه؟ اقتربت «نيكول» من الزجاج لتشاهد ما يجري عن كثب وقد اعترتها الدهشة. لابد أن هذا عمر الذي حكت لها «كوبسس» عنه. لم يكن شعور «كوبسس» زائفًا إذن. القلوب النقية هي التي ترى المستقبل

بعين الحاضر. أخذت «نيكول» تنتقل بعينيها بين صورة عمر الصبي والشاب الذي يقف وراء الزجاج غير مصدقة أن شيئًا مثل هذا قد يحدث في الحقيقة. الأساطير فقط والحكايات الشعبية هي التي تجعل من اللقاء المستحيل أمرًا ممكنًا.

شبكت «كوبسس» الخيط بين يديها ثم رفعتهما بمستوى «عموري». تجمد الأخير مكانه وهو ينظر إلى أصابعها الجميلة. لم يكن بأي منها خاتم زواج أو خلافه. خلع قفازه ثم مد يديه وراح يُكمل تشكيل «مهد القطة». قرب يديها من صدره ممسكًا بهما ثم قبلهما قبلة اختصرت لهفة السنين. نظر إليها مبتسمًا وهو يقول: «كيف حالك؟» يقصد: «اشتقت لك.» ارتمت في حضنه.

obeikandl.com

(١٢)

فوق جسر «كوركتاون» انتبه العاشقان الطاعنان في السن من غفلتهما ونشوتهما على صوت بكاء وسُباب. وقفت فتاة على مقربة منهما تفحص سياج الجسر. كانت تستند على عكاز تحت إبطها الأيمن وتحمل حقيبة خلف ظهرها طُبع عليها بأناقة علم كندا بورقة شجرة «القيقب» المميزة. يبدو أنها طالبة في جامعة «أوتاوا». حاولت دون جدوى نزع أحد الأقفال وهي تصيح بالفرنسية: «سافل... منحط... مخادع... قال لي إني حياته ودنياه، بينما كان يضاجع صديقتي».

نظرت «كوبسس» إلى «عموري» قائلة:

- تعتقد أنه من الممكن مواساتها؟
- لا أظن ذلك. دعيها تُفرغ غيظها.

نعم... لم يكن من الحكمة التحدث مع الفتاة في هذه الموجة من الغضب. للحب نجاحاته وإخفاقاته على أي حال. مقابل كل قصة حب ناجحة توجد قصتان أو يزيد من الشجن والفراق والإحباط والضياع. ليس هناك حب بدون فقد، ولا هناك هوى دون صد. مسكينة، لكن من منا

لم يخبر الهجر والجوى والضياع واليأس والأسى؟ نحب من ليس لنا ويحبنا من لسنا لهم! من منا لم يعرف الفراق؟

أسفل الجسر وبالرغم من سوء أحوال الطقس كان هناك فتى وفتاة يتزحلقان على الجليد. تعتبر قناة «ريدو» أكبر حلقة تزحلق طبيعية في العالم، أكثر من سبعة كيلومترات من الجليد المنبسط. قررا ألا يفوتا الشتاء.

في الحقيقة بدوا أشبه براقصين إيقاع أو راقصين للتانجو في حركات جسميهما الرشيقة. حقًّا الحب يُعبر عنه برقصة. في لحظات كثيرة شكَّلا معا شيئًا واحدًا ووحدة واحدة وكيانًا واحدًا. كان منظر الفتي والفتاة في ملابس التزحلق الملونة يأخذ بالألباب. لا تستطيع حين تراهما إلا أن تشهق شهقة طويلة وأنت تضع يدك على صدرك قائلا: «ما أروعهما!»

توقف الفتى والفتاة عن التزحلق وانتحيا جانبًا وهما يتعانقان. حين تراهما تشعر أنهما توأم ملتصق من الأمام. تشعر أنهما يتشاركان الحشايا والعظام والأنسجة والدماء. يمكنك فصل أصعب الأشياء مثل الأجنة والألوان، يمكنك فصل المواد بالترشيح والتقطير والمغناطيس، لكنك لا تستطيع أن تفصل أرواح المتعانقين. هناك أشياء لا يمكن تنصيفها أو قسمتها أو فصلها.

على مقربة منهما وقف رجلان يتبعان بلدية «أوتاوا». انهمكا في

إحداث ثقب في الجليد ثم قاما بتركيب مضخة في الثقب اندفع منه الماء على السطح المتجمد. يقومان بهذا الإجراء ليبقى الجليد ناعمًا وصالحًا للتزحلق. ظل الرجلان منتظرين حتى توقف العاشقان عن التزحلق فشرعا في العمل. ما أجمل أن تجد أناسًا يحرصون على مشاعر الآخرين ويقدرون أهمية لحظات الحب في هذه الحياة. يمكن لأي شيء أن ينتظر أمام هذه الأحاسيس النبيلة. يمكن لأي شيء أن ينتظر أمام الحب.

وقف «عموري» و»كوبسس» يشاهدان المنظر من أعلى الجسر. تمنت «كوبسس» لو أن فرشاتها معها. تخط دومًا في مفكرتها ما يذكرها بمشاهد العناق. العناق وليس غيره هو ما يشغل بالها ويستحوذ على تفكيرها. هذا الصباح وأثناء قدومهما من «مونتريال» بالسفينة النهرية شاهدت زوجين من الإوز البري الأبيض يلف كلاهما رقبته حول الآخر بشكل بديع. هذا هو عناق بعض الطيور. الثعابين أيضًا تفعل ذلك؛ لكل مخلوق طريقته في العناق.

لا عتق ولا خلاص في عناق المحبين، العناق هو قفل العشق الحقيقي، أو سمه ما شئت؛ قفل من دم ولحم. حين يتعانق الأزواج يغلقون هذا القفل، تتشابك الأيادي والسيقان والأعناق والشفاه وكل الجوارح، ثم يحدث الالتحام. هذا هو «طيب العناق على الهوى».[٨٢]

فجأة رن هاتف الفتاة المنزعجة بنغمة موسيقى أغنية **Ne partez pas**

sans moi «لا ترحل بدوني» للمغنية الكندية «سيلون ديون».[٨٣]
أخرجت الفتاة هاتفها، قبل أن ترد لاح شاب يافع على درج الجسر من الناحية المقابلة لـ «عموري وكوبسس» وهو يحمل دراجته. أسند الفتى الدراجة على حافة الجسر ثم تقدم صوب الفتاة قائلا:

- «إيلينا». كنت أعرف أني سأجدك هنا. بحثت عنك منذ الصباح.
- ماذا تريد مني؟
- أريد قفلي.
- هل نسيت؟ لقد قذفنا بالمفاتيح في نهر «سانت لورانس».
- أجل.
- أنت لا تحترم هذا القفل؛ ما تحتاجه فعلا هو قفل حول عضوك الذكري.
- أقسم لك أني لم أنم معها.
- حقًّا. يا له من خبر جميل!
- لقد طال غيابك في «تورونتو» يا «إيلينا»، وضغط عليّ أصدقائي لأذهب معهم إلى هذه الحفلة Soirée câlin.
- تعرف أني ذهبت مضطرة بعد الحادث الذي وقع لي. كان عليك أن تتحكم في شهواتك أكثر من ذلك.
- أخطأت. سامحيني.

obeikandl.com

- دعني وحدي.
- هل سمعت أستاذ التشريح في المحاضرة وهو يقول إن عين الإنسان ترمش ثلاثة وعشرين ألف مرة في اليوم وأن قلبه يدق أربعة مليون مرة سنويًّا وأن رئته تتنفس مائتين وأربعة مرة في متوسط عمره؟
- لم أكن منتبهة، لكن ما شأني بذلك؟!
- لقد أردت أن أصرخ في المدرج بأعلى صوتي قائلا: «أحبك يا إيلينا كل يوم قدر هذه الأنفاس والحركات والدقات».

أشاحت «إيلينا» بوجهها بعيدًا عنه، لكن الشاب لم ييأس، تقدم خطوتين منها وهو يقول:

- «إيلينا»... رتبنا أن نمضي «الكريسماس» معنا. عودي معي يا «إيلينا». دعينا نحافظ على هذا الحب قبل فوات الأوان.

وقف «عموري» و«كوبسس» يتابعان المشهد وأنفاسهما محتبسة وعيونهما معلقة على «إيلينا»، ولسان حالهما يقول: «نعم يا إيلينا، سامحيه واذهبي معه». نظرت «إيلينا» إلى قفلهما ثم التفتت نحو «كوبسس» التي هزت لها رأسها بالموافقة. التفتت «إيلينا» نحو فتاها. أخذت خطوة مترددة بعكازها، لكنه حين فتح لها ذراعيه قائلا: «تعالي يا حبيبتي... استندي عليّ»، اندفعت إليه دافنة وجهها بين راحتيه تاركة العكاز يقع على الأرض.

تنفست «كوبسس» الصعداء، عانقت «عموري» والفرحة ترقص على وجهها. تركا «إيلينا» وفتاها يتعاتبان. هبطا درج الجسر وسارا معًا في نفس الطريق الذي أتيا منه. بعد مائتي متر أو يزيد ضحك «عموري» على نحو يدعو إلى الغرابة. نظرت إليه «كوبسس» متسائلة:

- ما الذي يُضحكك؟
- هل سمعت الفتى وهو يقول لـ «إيلينا» أنه بحث عنها منذ الصباح؟
- نعم.
- أردت أن أقول له في هذه اللحظة أني أمضيت سنوات أبحث عنك.
- هذا جيل مختلف يا «عموري». جيل اختصر الزمن بالإنترنت والجوال ونظام التوقيع الأرضي. كل المطلوب منه أن يضغط على أي زر ليستمر. Press any key to continue هكذا يقولونها بالإنجليزية.
- أصبت. لو كانت هذه الأشياء موجودة في زماننا لوصلت إليك أسرع.
- أو تظن ذلك؟
- مؤكد. وأنت؟
- ربما.

obeikandl.com

- لكن ماذا يفعلون في هذه الحفلة [٨٤] Soirées câlin التي سببت المشكلة بين «إيلينا» وفتاها؟!
- حقًّا لا تعرف؟ لماذا لم تسأله؟
- أنا أسألك أنت.
- حفلة يحضرها غرباء يتناوبون لمس أجسامهم في أي مكان، وتبادل الملاطفات والمداعبات الجنسية عدا الممارسة الكاملة.

شعرت «كوبسس» ببعض الضيق وهي تتلفظ بالكلمات الأخيرة, تذكرت ماضيها السيئ مع زوجها الأول وشذوذه الجنسي. انتبه «عموري» إلى ذلك فهم قائلا .

- أنا آسف. لم أدرك أن هذا الأمر سيؤلب عليك المواجع.
- لا عليك يا حبيبي.
- لكنه شيء غريب حقًّا!
- ما وجه الغرابة؟ إنهم لا يرونه كذلك. يجب أن تدرك أننا ننتمي لجيل آخر وحسب. لقد شاهدت في «مونتريال» منذ بضع سنوات حملة لشباب يحملون لافتات مكتوب عليها Câlins gratuits، «أحضان مجانية»[٨٥] ويقوم المارة بعناقهم وتقبيلهم.
- أمر عجيب فعلا! كيف يتم ابتذال هذه المشاعر النبيلة إلى هذا الحد؟!
- أرأيت؟ صحيح أن لديهم الإنترنت والجوال، لكن ليس لديهم

الإحساس بقيمة هذه الأشياء.

- أصبت.

اتجه العاشقان إلى المرسى النهري في «أوتاوا» ليستقلا السفينة السياحية إلى حيث يقيمان في «مونتريال». قطعا حوالي مائة وسبعين كيلو مترا ليستقر قفلهما على الجسر، لكن الرحلة البحرية كانت أيضًا رائعة واستمتعا بالطعام والمناظر الطبيعية، وفوق هذا وذاك بصوت اسطوانة المغنية الفرنسية الرائعة «ميريل ماتيو»[٨٦] وهي تصدح بأغنية **C'est le temps de l'amour qui revient** «حبي سيعود إليّ». لم يتحدثا كثيرا في طريق العودة للمرسى، لكن لمساتهما وشعورهما كفاهما الكلام وقال عنهما الكثير.

يعتقد الكثيرون أن الحب حكر على المراهقين والشباب، وأن العشق اختص بهم دون غيرهم، لكن هذا خطأ كبير؛ الشيخوخة الحقيقية هي شيخوخة الأفئدة لا الأنسجة، العمر الحقيقي لا يُحسب بانصرام الأيام بل باتقاد الهيام، لحظة واحدة تجعلك كهلا وأخرى تُعيدك طفلا. الوجد والصبابة أمران لا يخضعان لمنطق السنين.

الغرام المنزه يستمر حين تخمد جذوة الشهوة ولفحة الجسد، لا يموت الحب وإن شاخ الجسد؛ الحب يبقينا صغارًا للأبد. من يحب بحق يحب للأبد، من أجل ذلك تُعبر لغات كثيرة عن الجنس بلفظ «الحب» ففي

الفرنسية Faire l'amour وفي الإنجليزيةMake love ، كلاهما يعني «ممارسة الجنس».

اقترب «عموري» و»كوبسس»من المرسى. كان القبطان يُعطي بعض التعليمات ويشرف على صعود المؤن والمشروبات إلى السفينة. حين رآهما هم قائلا:

- ها قد عاد المتحابَّان. هل راقت لكما «أوتاوا»؟
- أجابته «كوبسس»:
- كثيرًا أيها القبطان.
- أين ذهبتما؟
- جسر «كوركتاون».
- جسر «كوركتاون». نعم... سمعت أنه أقيم تخليدًا للأيرلنديين الذين حفروا قناة «ريدو». وماذا أيضًا؟
- فقط... الجسر فقط.
- الجسر فقط في هذه الثلوج؟!
- هذه قصة طويلة أيها القبطان.
- أتمنى أن نجد الوقت في طريق العودة لتحكيها لي أيتها السيدة المبجلة.
- نظر «عموري» إلى القبطان قائلا:

obeikandl.com

- لدي سؤال لك أيها القبطان.
- هلم به أيها السيد المحترم.
- اسم السفينة؟ هذه الحروف נחת؟![87]
- آه. فهمت. هذا سؤال شائع. الكلمة عبرية وتُنطق «ناكوس».
- وما هو هذا «الناكوس»؟!
- السعادة والقناعة والرضا وصفاء البال والفخر بالإنجازات وأشياء أخرى كثيرة.
- كل هذا؟
- نعم. مالك السفينة يهودي. قَدِم كندا طفلا مع والده قبيل الحرب العالمية الثانية مع تزايد المضايقات لليهود في أوروبا. رجل عصامي بدأ من الصفر، من صياد أسماك بسيط في بحيرة «تيميسكامنج»[88] إلى مالك لسفينتين سياحيتين.

بعد أقل من ساعة وعلى متن السفينة كان «عموري» يفكر في «الناكوس»، نظر إلى كاسحة للجليد تعمل على إبقاء المجرى النهري مفتوحًا. ما أشبه كسارة الثلوج تلك بآلة القدر الضخمة التي تحطم أحلامنا وتعصف بأيامنا وتمزق أجسامنا وتفصلنا عن أحبائنا، وما أشبه الإنسان بقطعة من الثلج في غور الجحيم، يسير على أوتار هشة هينة، حدث بسيط قد يغير حياته، قلبه قد يتوقف في أي لحظة، رشفة ماء قد تقتله. لدغة بعوضة قد تودي بحياته، سلك كهرباء قد يصعقه.

تنهد «عموري» تنهيدة عميقة وهو يتذكر ما مضى من أيامه. ربما لم يكن راضيًا عن أطوار كثيرة من حياته؛ ربما ما زال في حلقه غصة وفي قلبه شيء، لكنه الآن أكثر تقبلا وأقل حنقًا وغيظًا. الزمن ليس خصمًا ولا تستطيع أن تنازله، وإن صارعته صرعك. حان الوقت لكي يهدم أقبية الشك والخوف. حان الوقت لكي يتسامح مع نفسه وأيامه وتجاربه وذكرياته. نتألم لنتعلم ونحترق لننضج.

كانت «كوبسس» تتابع المشاهد الطبيعية، ارتمت في حضن «عموري» الذي احتواها بيديه ولسان حاله يردد مع فيروز: «أنت لي. أنت لي. آه عانقيني... عانقيني».[٨٩]

- ما هذا السرحان يا حبيبي؟
- شغلتني قصة الفتى اليهودي.
- كنت متأكدة من ذلك؟
- حقًّا؟!
- اقذف بالماضي وراء ظهرك يا «عموري»، تصالح مع نفسك كما فعلت أنا. لم يعد في العمر الكثير. لم يكن كله سيئًا.
- لم أقل ذلك.
- لا يكفي أن تقول أو لا تقول، المهم أن تراه كذلك، يمكننا أن نغير الأشياء حين ننظر إليها بشكل مختلف. أما سمعت بقصة مريض المستشفى الذي كان يتطلع عبر النافذة فيصف الأشجار

والطيور، وحين مات وانتقل رفيق غرفته لمكانه لم يجد سوى مغسلة المستشفى والمشرحة والمحرقة؟

كانت السفينة تشق المياه فتدفعها على الجانبين إلى الخلف، التقط «عموري» هذه الصورة فأدرك أن ماضيه كهذه المياه قد ولى وأن عليه أن ينتبه لقيادة سفينته ولقادم أيامه القليلة. فعلا... اليأس جريمة، لكن النزف لا يتوقف، ربما ما يحتاجه فعلا أن يضع نفاياته بين فاصلتين، ثم يعتبرها جملةً اعتراضيةً أو بالأحرى شيئًا عرضيًّا في حياته المديدة.

ربما ما يحتاجه في هذا التوقيت هو أن يبدأ في البحث عن المركز الإسلامي في «مونتريال»، لقد تأخر كثيرًا. تذهب «كوبسس» إلى كنيسة كاثوليكية صغيرة في هذه المدينة. من المؤكد أنها سمعت قصة المريض هناك، تقول إن الاعترافات تريحها وإنها صالحت نفسها وسامحت الزمن وصفحت عن كل من سبب لها ألمًا في حياتها. تقول إنها طردت من عقلها فكرة الضحية، تقول إنه لا يُوقف نزيف الذاكرة إلا التسامح. أجمل ما في «كوبسس» قدرتها على صياغة الجمل الرقيقة. ما أشبه «كوبسس» بدودة القز يخرج الحرير من فمها، وما أشبه «عموري» بنفس الدودة في سعيه الدءوب نحو التشرنق.

نظر «عموري» إلى «كوبسس». يصحو على وجهها لما يناهز اثني عشر ألف صباح، لا يمل منه وكأنه يراه لأول مرة، يفعلان كل شيء معا.

يُذَكر كل منهما الآخر بأدويته، حب السنين وحب المسنين. حب بلا فراق.

أخرجت «كوبسس» مفكرتها الصغيرة وراحت بقلمها الرصاص الرشيق ترسم صورة لشاب وفتاة يتبادلان قبلا محمومةً بجوار شجرة عيد الميلاد التي وضِعت وأُضيئت في السفينة، للرغبة مخالب وأسنان. ما هذه الحمم التي تتطاير حولهما؟! أخذ الشاب في تمرير لسانه على حاجبي الفتاة ويلثم أنفها بفمه. تناوب كلاهما وضع رأسه على كتف الآخر. كانا في غياب تام عن الوعي وعن ما يجري حولهما. سمعت «كوبسس» امرأة أربعينية تقول لأخرى على المائدة المقابلة:

ما كل هذا الكلام؟!

كلام في الحب.

ما أجملهما!

إذا كان هذا حجم شبقهما على القارب فماذا سيفعلان في غرفة النوم؟!

أصبت. إذا كانت هذه بروفة وحسب فكيف سيكون العرض؟!

تمنيت لو شاهدت ذلك.

يا لك من امرأة شريرة.

أتعرفين؟ قرأت أن العناق والقبل يقويان جهاز المناعة ويقللان من

obeikandl.com

اضطرابات القلب.

حقًّا؟!

نعم... من أجل ذلك قامت امرأة أمريكية أظن اسمها «جاكي صامويل»[٩٠] بفتح بيتها في «نيويورك» للعناق.

فتحت بيتها للعناق؟!

أجل... يقصدها الرجال والنساء فينامون في حضنها الدافئ مقابل ستين دولارًا في الساعة.

عجيب!

لكنها لا تسمح بالممارسات الجنسية.

آه... لكن ماذا تفعل لتتقاضى ستين دولارًا في الساعة؟!

وضع الملعقة.

وضع الملعقة؟! كيف؟

تخيلي ملعقتين منطبقتين. هذا هو.

فقط؟!

ليس فقط. تقول أيضًا إنها تتقن فن اللمس بأشكاله المختلفة: الربت فوق الكتف، الطبطبة فوق الظهر، مداعبة الشعر وأشياء من هذا القبيل.

obeikandl.com

مممم.

انهمكت «كوبسس» في الرسم. توقفت الموسيقى الهادئة فرفعت الفتاة رأسها من على صدر فتاها. بدآ يتحدثان معا بلغة الإشارة، نعم لقد كانا أصمين. نظرت المرأتان إليهما في دهشة، الحب لا يحتاج للكلام. قالت إحداهما:

كان حوارًا صامتًا إذن.

وددت لو عرفت معنى هذه الإشارات.

أنا أخبرك. يقول لها: «أنا ملكك اليوم. أريدك بجانبي الليلة. لم لا تنتقلين للعيش معي؟ سنتقاسم المصروفات، لدي شقة جميلة، هل قلت لك إني لدي زوج من «الهامستر» في البيت، لونهما أبيض جميل.»

قال لها كل هذا؟!

نعم.

أشارت المرأة الأولى إلى شاب ظلَّ يلاحق فتاة بعينيه ويتردد في الحديث معها، انطلق الشاب إلى الفتاة وهو يقدم رِجلاً ويؤخر أخرى ثم ابتسم لها محييًا. بادلته الفتاة الابتسامة وشرعا يتحدثان. لابد وأنه دعاها إلى كوب من القهوة أو ما شابه. قالت المرأة معلقة:

- أخيرًا نجح في كسر الجليد.

obeikandl.com

- جليد العلاقات أقوى من جليد «ألاسكا».
- أصبت.
- أراهن أنهما سيتواعدان مجددًا في «مونتريال».
- ربما ذهبا إلى السينما.
- ثم يمضيان الليل معًا.
- ليس بهذه السرعة. يجب ألا تفعل ذلك.
- ما أجمل هذا الإحساس!
- أتعرفين يا «شالوميت»؟... يتعين علينا أن نشرع في البحث عن رجلين في حياتنا.
- أجل. مضت سنة منذ انفصلت عن «شارل».

قالتها المرأة في حسرة.

اقتربت السفينة من هويس «كاريلون».[٩١] حانت اللحظة الحاسمة إذن. أغلقت «كوبسس» مفكرتها، أخرج كل منهما مفتاحه ثم قبض عليه وتمتم بأمنيته وألقاه ليستقر في قاع النهر. كانا قد اتفقا أن يلقيا بالمفتاحين في هذا الموضع لأنه يذكرهما بقناة السويس. نظر «عموري» إلى «كوبسس» قائلا:

- ماذا تمنيتِ؟
- لن أقول لك.

obeikandl.com

- حسن... وماذا سنفعل بالمفتاح الثالث؟
- مفتاح عذول. ليس له شريك.
- نلقيه في الماء أيضًا؟
- لا. أنا أقول لك ماذا نفعل به؟

أخذت «كوبسس» المفتاح من «عموري» ثم سارت به نحو شجرة عيد الميلاد فعلقته عليها ليستقر هناك مع أشياء كثيرة: نظارة شمس وساعة يد وخاتم وجورب قدم وصفارة ومشكال وأشياء أخرى متنوعة. أخذت المشكال من على الشجرة ونظرت فيه لترى أطيافًا متباينة من الألوان. حين عادت إلى مكانها سألها «عموري»:

- هل كان هذا منظار؟
- لا... مشكال ترى فيه ألوانًا جميلةً متنوعة. أتعرف يا «عموري»؟
- ماذا؟
- إن كندا مثل هذا المشكال.
- كيف؟
- إنها أكثر تسامحًا من فرنسا.
- كيف؟
- أُنظر حولك لترى السكان الأصليين الحمر والأفارقة والأوربيين والمهاجرين من شتى أرجاء العالم، وكلهم يعيشون في وئام وتوافق.

obeikandl.com

- تقصدين أقل عنصرية؟
- فعلا.
- لا تشتاقين إلى فرنسا إذن؟
- بالعكس فرنسا تملأ روحي ووجداني.... وأنت هل تحن إلى مصر؟
- أنت تعرفين أني تركتها وأنا بعد صغير. ليس لي ذكريات كثيرة فيها. صورتي عنها مشوشة، لكن هناك بضع مشاهد لا تخرج من ذاكرتي أشدها إيلاما على نفسي صورة أمي وهي تودعني بالقرب من المعدية. لكم تمنيت أن أهتدي إليها، لكن القدر قال كلمته.
- أنت تعرف أننا حاولنا كثيرًا دون جدوى.
- أجل. كان جميلا منك أن ترسمي لها هذا «البورتريه» الذي نعلقه في مسكننا. كم أنا ممتن لك.
- لم أفعل ذلك من أجلك وحدك؛ يعلم الرب أني أحبها وأعتبرها مثل أمي. كانت سيدة طيبة متدفقة المشاعر.
- كانت؟!
- حبيبي... آسفة، لكن من الصعب تصديق أنها ما زالت على قيد الحياة. كم من الأشخاص يعيشون حتى التسعين؟ قليل، أليس كذلك؟
- أجل... مازلت أحتفظ بالخطاب الذي أرسلته لكم من «مونتريال».

- أعلم ذلك. لقد قرأته لي عشرات المرات.
- اختنق «عموري» بالعبرات وهو يقول:
- حقًّا؟
- «عموري» حبيبي ليس كل ما نعرفه يريح القلب.
- مممم.
- بعض الأشياء تبقى جميلة طالما ظلت مجهولة.

ظهرت بعض البيوت الأنيقة على جانبي النهر، كان بعض الصبية والفتيات يلعبون ويقذفون بكرات الثلج التي يزيد حجمها وهي تتدحرج على الجليد تمامًا مثل أحزاننا في هذه الحياة.

- كنت أتمنى أن أحمل وألد لك طفلاً.
- لقد تجاوزنا هذا الآن يا «كوبسس».
- أعرف أنك تحب الأطفال.
- أنت طفلتي الصغيرة؛ لم تكبري في نظري.
- حقًّا؟!
- انظري هناك.

على ضفة النهر راح أطفال آخرون يشكلون منحوتات ثلجية. بالقرب من ضفة النهر انهمك طفل وطفلة في بناء «إيجلو»[٩٢] أو بيت صغير من الثلج، نظر «عموري» و«كوبسس» إليهما. عادا بالذاكرة عشرات

obeikandl.com

السنين ومسحت عيونهما آلاف الأميال لتستقر في «بورفؤاد» حيث كانا يلهوان معًا بالقرب من شاطئ القناة، ويلقيان بالصواريخ والمراكب الورقية «الأوريجامي»[٩٣] في المياه، ويلعبان الغميضة والحجلة ونط الحبل ومهد القطة ويبنيان قلاعًا من الوسائد أو يقفزان من سرير لآخر.

- أتذكرين حين عضضْت يدي؟
- أجل لأنك دستَ على ذيل قطتي.
- لم أكن أقصد.
- أشك في ذلك.
- تركت العضة علامة في يدي.
- أتذكر أنك بكيت أيضًا.
- لا لم يحدث.
- حقًّا؟!
- الحب من أول عضة.
- أجل.

نظر كلاهما إلى الآخر نظرة حب ورضا وامتنان. تأبطت «كوبسس» ذراع حبيبها وزوجها وكل حياتها. ابتسما وتعانقا من جديد.

obeikandl.com

د / محمد السيد علي عزب

- أستاذ الأدب الإنجليزي «المنتدب» بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- Enhance your English Vocabulary، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.

- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا «ترجمة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.

- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

obeikandl.com

- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١١.

- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١١.

- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥، آرائهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، ٢٠١١.

- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوي للنشر، بيروت، ٢٠١٢.

- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١٢.

- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١٢.

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- الحياة في البلاط الملكي المصري (للمؤرخ الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- بين الحب والحرب (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

obeikandl.com

(setondnE)

1 .Wuhan
2 .Dhaka
3 .Bideford
4 .Mrs Reads
5 .Torridge
6 .Isidor & Ida Straus
7 .Necrophilia
8 .Mantuva
9 .Lovers of Valdaro
10 .Somerset
11 .Rideau
12 .Passerelle Corktown
13 .Ottawa
14 القصيدة للشاعر Jacques Prevert (١٩٠٠-١٩٧٧).
15 .Huangshan
16 .Erdberger
17 .Happny
18 .Tumski
19 . Hohenzollern Bridge
20 .Milivian Bridge
21 .Federico Moccia
22 .Ho Voglia Di Te
23 .Raška
24 .Nada
25 .Relja
26 .Vancouver
27 لبشارة الخوري.

obeikandl.com

28 .Locked forever until the city of Ottawa decides otherwise

29 Statue of Embracing Couple by Paul Day at King's Cross
.St. Pancrass Train Station, 2007

30 .Ontario

31 .Quebec

32 .Montreal

33 .Cecile Chabot

34 ترجمة د/ إحسان هندي.

35 رواية شهيرة للكاتبة الإنجليزية «جين أوستن».

36 .Grenoble

37 رسالة بعث بها ديليسبس إلى مودموزيل «ديلامال» في ١٥ نوفمبر ١٨٥٤.

38 .Kopses

39 .Byron, "When We Two Parted"

40 للكاتب اليوغسلافي Ivo Andrić.

41 .Andre Gide

42 .Alfred Adler, Sigmund Freud, Carl Jung & Ivan Pavlov

43 .Sept iles

44 .Beaver

45 .Ulaakut

46 .Inuit

47 .Amarok

48 بدأت الحملة عام ١٩٦٨.

49 .Rue Sainte-Catherine

50 .Illes de la Reine Elisabeth

51 .Paris Syndrome

52 .Sappho

53 .Lesbos

54 .Hippies

55 Marie Antoinette, Francoise Sagan, Virginia Woolf,
.Eleanor Roosevelt& Marlene Dietrich

obeikandi.com

56 .Hirmthurs

57 Nunavik، شمال كيبيك.

58 .Jerusalem Syndrome

59 العبارة لمخائيل نعيمة.

60 شطر بيت لعمر الخيام.

61 .Nanook

62 .Asiyan

63 وهم «كوتار» Cotard Delusion .

64 .Yuki Omn

65 .Fairbanks

66 .Peary

67 .Wouldn’t that be lovely, from “My Fair Lady”

68 .Diogenes Syndrome

69 .Fetish

70 .Podophilia

71 .Orgy

72 .Bukkake

73 .Marina Abramovic

74 .The Kiss

75 .Gustav Klimt

76 .Embrace, Pablo Picasso

77 ترجمة «حمادة إبراهيم».

78 .Suez, 1938

79 .Royflex

80 .Guy de Maupassant

81 .Monochrome

82 راجع قصيدة «يا جارة الوادي» لأحمد شوقي.

83 .Céline Dion

84 .Cuddle Party

85 .Free Hugs Campaign

obeikandl.com

86 .Mireille Mathieu

87 .Naches

88 .Timiskaming

89 لبيروت، أغنية فيروز.

90 http://www.dailymail.co.uk/news/article-2227708/Jackie-Samuel-snuggle-Cuddling-makes-woman-260-day-New-York.html

91 .Carillon Canal

92 .Igloo

93 .Origami

opeikandl.com

obeikandl.com

رقم الايداع / 5727 / 2014ط1

الترقيم الدولى / ٩ - ٦٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مطبعة إبراهيم سالم

٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

obeikandl.com